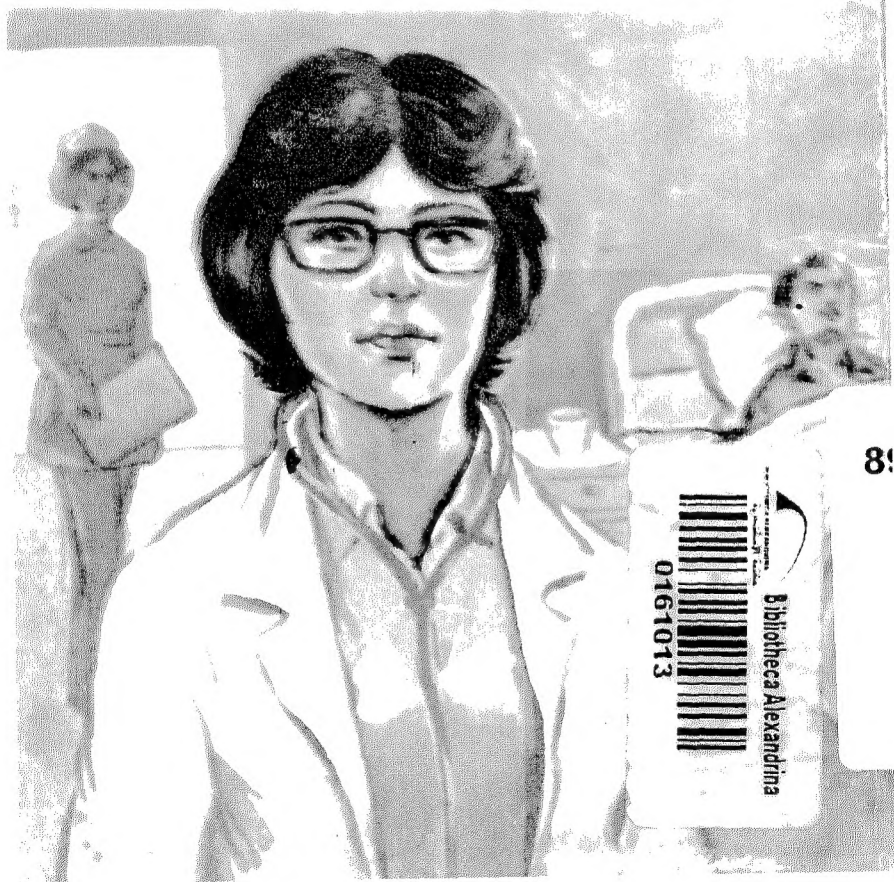


دكتورة نوال السعداوى

مذكرات طبيبة

اقرأ



القرآن

تجدد أول كل شهر

[٢٧٢] ١٥ مايو - ١٩٨٥

رئيس التحرير أنيس منصور

الدكتور نوال السعدري

مذكرات طبية

الطبعة الثانية



١

بدأ الصراع بيني وبين أنوثتي مبكراً جداً . . . قبل أن تنبت أنوثتي
وقبل أن أعرف شيئاً عن نفسي وجنسي وأصلي . . . بل قبل أن أعرف
أى تجويف كان يحتويني قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع .
كل ما كنت أعرفه في ذلك الوقت أنني بنت كما أسمع من أي .
بنت !

ولم يكن للكلمة بنت في نظري سوى معنى واحد . . . هو أنني لست
ولداً . . . لست مثل أخى . . .

أخى يقص شعره ويتركه حرّاً لا يمشطه وأنا شعري يطول ويطول
وتمشطه أي في اليوم مرتين وتقيدته في ضفائر وتحبس أطرافه بأشرطة . . .
أخى يصحو من نومه ويترك سريره كما هو وأنا على أن أرتب سريري
وسريره أيضاً .

أخى يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أي أو أبي ويعود في أي
وقت . . . وأنا لا أخرج إلا بإذن .

أخى يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتي ويأكل بمرعة ويشرب
الحساء بصوت مسموع وأي لا تقول له شيئاً . . .

أما أنا . . . أنا بنت ! على أن أراقب حركاتي وسكناتي . . . على أن
أخفي شهيتي للأكل فأكل ببطء وأشرب الحساء بلا صوت . . .

أخى يلعب . . . يقفز . . . يتشقلب . . . وأنا إذا ما جلست وانحسر

الرداء عن ستيمة من فخذى فإن أمى ترشقنى بنظرة مخلية حادة فأخفى
عورفى . . .

عورة !

كل شىء فى عورة وأنا طفلة فى التاسعة من عمرى !
حزت على قسى .

أغلقت باب غرفى على وجلست أبكى وحدى . . .
لم تكن دموى الأولى فى حياتى لأنى فشلت فى مدرستى أو لأنى
كسرت شيئاً غالياً . . . ولكن لأنى بنت !
بكيت على أنوثتى قبل أن أعرفها . . .
فتحت عينى على الحياة وبينى وبين طبيعتى عدااء .

د ع هـ

قفزت درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً لأهبط إلى الشارع قبل أن أفرع
من عد عشرة . . .

إن أخى ورفاقه من أولاد وبنات الجيران يتظروننى لنلعب عساكر
وحرامية . . . ولقد أخذت إذناً من أمى بالخروج . . . أحب اللعب !
أحب الجرى بأقصى سرعة . . . أشعر بسعادة طاغية وأنا أحرك رأسى
وذراعى وساقى فى الهواء . . . وأنطلق فى قفزات عالية لا يحدها إلا ثقل
جسمى تشده إليها الأرض . . .

لماذا لم يخلقنى الله طائراً أطيّر فى الهواء مثل هذه الحمامة وخلقنى
بتناً ؟ خيل إلى أن الله يفضل الطيور على البنات . . .

ولكن أخى لا يطير . . .

واستنى هذه الحقيقة بعض الشيء . . . أحسست أن الولد بالرغم من حريته الواسعة فهو عاجز مثل عن الطير . . . وأصبحت أقتش دائماً عن مواطن العجز في الرجل لتعزيني عن ذلك العجز الذى تفرضه على أنوثى .

لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز . . . أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى . . . ورأيت شيئاً أحمر اللون !
ما هذا ؟

انخلع قلبى من الملح وانسجبت من اللعب وصعدت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير . . .

ولم أفهم شيئاً . . . وظننت أن فى الأمر مرضاً مفاجئاً ألمّ بى . . .
وذهبت إلى أمى أسأله فى دعر . . .

ورأيت أمى تضعك فى سعادة . . . وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الابتسامة العريضة . . .
ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتني من يدي إلى غرفتي حيث قصت على قصة النساء الدامية . . .

. . .

لزمتم غرفتي أربعة أيام متتالية لا أملك الشجاعة على أن أواجه أخى أو أبى أو حتى الخادم الصغير .

لا بد أنهم اطلعوا جميعاً على عورتى ... ولا شك أن أمى فضحت
 سرى الجليد ... وأغلقت الباب على أفسر بينى وبين نفسى هذه
 الظاهرة الغريبة ... ألم تكن هناك طريقة أخرى تنضج بها البنات غير
 هذه الطريقة الملوثة؟ أيمكن لإنسان أن يعيش أياماً تحت سيطرة عضلاته
 اللاإرادية الغاشمة؟ لا بد أن الله يكره البنات فوصمهن جميعاً بهذا
 العار ...

وشعرت أن الله قد تحيز للصبيان في كل شيء ...
 ونهضت من فراشى أجز كيانى الثقيل ونظرت في المرآة ... ما هذا؟
 تنوءان صغيران نبنا على صدرى!
 آه ليتنى أموت!
 ما هذا الجسم الغريب الذى يقاجئنى كل يوم بعار جليد يزيد
 ضعفى وانكماشى؟!
 ترى أى شيء آخر سينبت في الغد على جسدى؟ أو ترى أى ظاهرة
 أخرى جديدة تنفجر عنها أنوثتى الغاشمة!
 * * *

كرهت أنوثتى ...
 أحسست أنها قيود ... قيود من دى أنا تربطنى بالسريير فلا أستطيع
 أن أجزى وأقفز ... قيود من خلايا جسمى أنا ... تسلسلنى
 بسلاسل من الخزى والعار فأنطوى على نفسى أخنى كيانى الكتيب ...
 لم أعد أجزى ... ولم أعد ألب ...

هذان التوءان على صبرى يكبران ويهتران كلما مشيت . . .
وقفت حزينة بقامتى الطويلة الفارعة أخنى صبرى بلراعى وأنظر فى
حسرة إلى أخى وزملائه وهم يلعبون . . .
كبرت . . . كبرت عن أخى مع أنه أكبر منى سنّاً . . . كبرت
عن أمثالى من الأطفال فانسحبت من وسطهم وجلست وحدى
أفكر . . .

انتهت طفولتى . . . طفولة قصيرة سريعة لاهته . . . لم أكد أحس
بها حتى أدبرت وخلفت لى جسد امرأة ناضجة يحمل فى حناياه طفلة فى
العاشرة من عمرها . . .

• • •

رأيت عيني البواب وأسنانه تلمع وسط وجهه الأسود سواد الفهم . .
واقرب منى وأنا أجلس وحدى على دكته الخشبية أتابع بعيني أخى ورفاقه
وهم يحررون ويقفزون . . .

وأحسست بطرف جلبابه الخشن يلمس ساقى وشعمت رائحة ملابسه
الغريبة فابتعدت فى اشمئزاز لكنه اقرب منى مرة أخرى وطولت أن أخنى
عنه خوفى بمراقبة أخى وزملائه وهم يلعبون لكنى أحسست أصابعه الغليظة
الخشنة تتحسس ساقى وتتسلقهما من تحت ملابسى ! . . .

ووقفت مذعورة واندفعت أجرى بعيداً عنه . . .

هذا الرجل الأسود الكرهه أيضاً يتطلع إلى أنوثتى ؟
وأخذت أجرى حتى دخلت البيت . . . وسألتنى أمى عن سبب

انتزاعى . . . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً . . . لعل شعرت بالخوف
أو الخزي أو كليهما . . . أو لعل ظننت أنها ستعتفى وأنه لن يكون بيننا
ذلك الود الذى يجعلنى أحكى لها أسرارى . . .

* * *

لم أعد أخرج إلى الشارع . . . ولم أعد أجلس على الدكة الخشبية . . .
هربت من تلك المخلوقات الغريبة ذات الأصوات الغليظة والشوارب
التي يسمونها رجالا . . . وخلقنت لنفسى عالماً خاصاً من صنع خيالى . . .
جعلت من نفسى فيه إله، وجعلت من الرجال مخلوقات عاجزة غيبة تقوم
على خدمتى . . .

وجلست فى عالمى على عرشى الرفيع أرتب العرائس فوق الكرامى وأضع
الصبيان على الأرض وأحكى لنفسى القصص والحكايات . . .
لم يكن ينقص على حياتى فى وحدتى مع خيالى وعرائسى سوى
أنى . . . بأوامرها الكثيرة التى لا تنتهى . . . أعمال البيت والمطبخ . . .
دنيا النساء المخلودة القبيحة التى تفوح منها رائحة الثوم والبصل .

لم أكن أهرب إلى عالمى الصغير حتى تجرئنى أنى إلى المطبخ وهى تقول :
— مصيرك إلى الزواج . . . يجب أن تتعلمى الطبخ . . . مصيرك

إلى الزواج . . . الزواج ! الزواج !

تلك الكلمة البغيضة التى كانت ترددها أنى كل يوم حتى كرهتها . . .
لم أكن أسمعها حتى أتمثل أمامى رجلاً له بطن كبير فى داخله مائدة
طعام . . .

ارتبطت في ذهني رائحة المطبخ برائحة الزوج . . .
وكرهت اسم الزوج وكرهت رائحة الأكل .

* * *

سكنت جدي العجوز عن الثروة ونظرت إلى صدرى . . . ورأيت
عينها المتأكلتين تتأملان البرعمين الجديدين البارزين وترنهما . . . ثم
رأيتها تهمس لأخي بشيء . . .

ومضت أرى تقول لى : ارتدى القستان اللبني لتدخل وتسلمى على
الضيف الذى مع أهلك فى الصالون . . .
وشممت رائحة مؤامرة فى الجو . . .

وكنيت أقابل معظم أصدقاء أبى وأقدم لهم القهوة . . . وأحياناً أجلس
معهم وأسمع أبى وهو يحلشهم عن تفوقى فى المدرسة فأشعر بالفرحة وأحس
أن أبى باعترافه بكأى ينتشلى من دنيا النساء الكئيبة التى تفوح منها
رائحة البصل والزواج . . .

ولكن لماذا القستان اللبني ؟ ذلك القستان الجديد الذى أكرهه . . .
فى صدره كشكشة غريبة تستقر على نهدي وتريد من بروضهما . . .

ونظرت إلى أمى تفحصنى . . . وقالت : أين القستان اللبني ؟
ورددت فى غضب : لن ألبسه ! . . . ولحيت بوادر التمرد فى عيني
فنظرت إلى أمى وقالت : ساوى حاجيك إذن . . .
ولم أنظر إليها . . . وقبل أن أفتح باب الصالون لأدخل عبثت
بأصابعى فى شعر حاجي فنكشتهما . . .

وسلمت على صديق أبى وجلست . . . ورأيت وجهاً غريباً مخيفاً له
نظرة مدققة فاحصة تشبه نظرة جلدنى . . .

وقال أبى : إنها أولى فرقها هذا العام فى الابتدائية . . .

ولم أر فى عيني الرجل أى تعبير عن إعجاب بهذا الكلام . . .
ورأيت نظراته الفاحصة تحوم حول جسدى وتستقر فى النهاية على صدرى
فوقفت مذعورة وخرجت من الحجرة أجرى كأنما عفريت يطاردنى . . .
وتلقننى أى وجدنى على الباب بلهفة وشوق وقالتا فى نفس واحد . .
هيه . . . ماذا فعلت؟

وصرخت فى وجهيهما صرخة واحدة وجريت إلى غرفى وأغلقت الباب
على . . . وذهبت إلى مرآتى أنظر إلى صدرى . . .

كرهتهما! هذان البروزان! تلكما القطعتان الصغيرتان من اللحم
اللتان تحددان مستقبل! وددت لو أجتهد من فوق صدرى بسكين حاد!
ولكنى لم أستطع . . . استطعت فقط أن أخفيهما . . . أن أضغط
عليهما بمشد سميك ليبطهما

* * *

هذا الشعر الطويل الثقيل . . . الذى أحمله فوق رأسى فى كل
مكان . . . يعطلنى كل صباح، ويرهقنى فى الحمام، ويلهب رقبى فى
الصيف . . .

لماذا لا يكون قصيراً حراً كشعر أخى؟ لا يحمله فوق رأسه ولا يعطله
ولا يرهقه؟



ولكن أى تتحكم فى حياتى ومستقبلى وجسدى حتى خصلات
شعرى . . .

لماذا . . . ؟

لأنها ولدتنى ؟ ولكن أى فضل لما فى أنها ولدتنى ؟ كانت تمارس
حياتها الطبيعية كأى امرأة تم جثت أنا بغير إرادتها فى لحظة من لحظاتها
السعيدة . . . جثت دون أن تعرفى . . . ودون أن تختارنى . . . ودون أن
أختارها . . .

لقد فرضت عليها ابنة وهى فرضت على أمى . . .

أيمكن لإنسان أن يحب مخلوقاً فرض عليه ؟ وإذا كانت أى تحبى رغماً
عنها بغريزتها فأى فضل لما فى هذا الحب ؟ وهل هى ترتفع كثيراً عن
القطعة التى تحب أولادها حيناً وتأكلهم حيناً آخر ؟

أليست هذه القسوة التى تعاملنى بها أى أكثر إيلاًماً لى مما لو أنها
أكلتنى ؟ !

وإذا كانت أى تحبى حباً حقيقياً هدفه سعادتى وليست سعادتها ،
فلماذا تكون كل أوامرها ورغباتها تتعارض مع راحتى وسعادتى ؟ !
أيمكن أن تحبى وهى تضع السلاسل كل يوم فى قدى وفى يدى
وحول رقبتى ؟ !

• • •

خرجت لأول مرة فى حياتى من البيت دون أن آخذ إذناً من أى . . .
مشيت فى الشارع وقد منحنى التحدى نوعاً من القوة ولكن قلبى

كان يحقق من الخوف . . .

ولحت لافتة كتب عليها : حلاق للسيدات . . .

ترددت لحظة ثم دخلت . . .

نظرت إلى خصلات شعري وهي تتلوى بين فكي المقص الحاد ثم
تهوى إلى الأرض . . .

أهلده الخصلات هي نبي تقول عنها أى إنها تاج المرأة وعرشها ؟ أيجر
تاج المرأة هكذا صريعاً فى لحظة إصرار واحدة ؟ شعرت باستخفاف شديد
نحو النساء . . . رأيت بعيني رأمى أنهم يؤمن بأشياء تافهة لا تساوى
شيئاً . . . ومنحني هذا الاستخفاف بين قوة جديدة جعلتني أعود إلى البيت
وأنا أسير على قدمين ثابتتين ، واستطعت أن أشد قائمتي وأنا أقف أمام أى
بشعري القصير . . .

صرخت أى صرخة عالية وناولتني صفة حادة على وجهي . . . ثم
تلها صفعات وصفعات . . . وأنا أقف كما أنا . . .

كأنما تجمدت . . . كأنما جعل مني التحدى قوة لا يهزها شيء . . .
كأنما جعل مني انتصارى على أى جسماً صلباً لا يحس بالصفعات . . .
كانت يد أى ترتطم بوجهي ثم ترتد عنه كأنما هي ترتطم بصخرة
من الجرانيت . . .

كيف لم أبك ؟ أنا التى كانت تيكيني « الشخطة » الواحدة أو الصفعة
الخفيفة ؟

لكن دموعي لم تسقط . . . عيناي مفتوحتان تنظران فى عيني أى

في جرأة وقوة . . .

ظلت أُمي تصفني . . . ثم تهاوت على الأريكة جالسة وهي تردد في
ذهول: لقد جنت !

أشفقت عليا حين رأيت ملاحظها ترتخي في انهماك وضعف وشعرت
برغبة قوية في أن أعانقها وأقبلها وأبكي بين ذراعيها . . . وأقول لها : ليس
العقل هو أن أطيعك دائماً . . .

ولكنني أبعدت عيني عن عينيها حتى لا تعرف أنني شهدت هزيمتها ،
وجريت إلى حجرتي . . .

ونظرت في المرأة وابسمت لشعري القصير ولبريق الانتصار في
عيني . . .

عرفت لأول مرة في حياتي كيف يكون الانتصار . . . الخوف
لا يفعل شيئاً إلا المزيم . . . والانتصار لا يكون إلا بالشجاعة .
زال مني الخوف الذي كنت أشعر به نحو أُمي . . . سقطت عنها
تلك الحالة الكبيرة التي كانت تجعلني أرهاها . . . أحسنت أنها امرأة
عادية . . . وصفعاتها التي هي أقوى ما فيها لم أعد أخشاها . . . لأنها لم
تعد تؤذي . . .

، ، ، ،

كرهت البيت ما عدا حجرة مكثي . . . وأحييت المدرسة ما عدا
حصّة التدبير المنزلي . . . وأحييت أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . . .
واشتركت في كل نشاط المدرسة . . . دخلت جمعية التمثيل وجمعية

الخطابة وجمعية الرياضة وجمعية الموسيقى وجمعية الرسم . . . ولم يكفني ذلك بل اجتمعت ببعض زميلاتي وكونت جمعية أطلق عليها اسم جمعية الأنس . . . لماذا اخترت كلمة الأنس ؟ لم أدر . . . ولكنني شعرت أن في أعماقي رغبة شديدة إلى الأنس . . . إلى أنس ضخم كبير لا يؤنسه شيء . . . إلى مجاميع هائلة من الناس تؤنسني وتحدثني وتستمع إلى وتنطلق معي إلى السماء . . .

خلت أن أي ارتفاع لن يكفيني . . . لن يطئني تلك الشعلة المتأججة في نفسي . . . وكرهت الدروس المتكررة المشابهة . . . كنت أقرأ الموضوع مرة واحدة . . . واحدة فقط . . . أحسست أن التكرار يخففني . . . يقتلني . . . كنت أريد شيئاً جديداً . . . جديداً . . . دائماً . . .

لم أشعر به حين دخل إلى حجرتي ووقف إلى جوارى وأنا أجلس إلى كتابي إلا حين قال :

— ألا ترغين في الترويح عن نفسك قليلاً .

وكنت قد قرأت طويلاً وشغرت بالتعب فابتسمت قائلة :

— أريد أن أتمشى في الحلاء .

— إلبسي معطفك وهيا بنا .

أدخلت نفسي في المعطف بسرعة وجريت إليه . . . كنت على وشك أن أضع يدي في يده وتنطلق نجرى معاً كما كنا تفعل ونحن أطفال ،

لكن عينيَّ تعلقتا بعينه فذكرت فجأة السنين الطويلة التي لم أَلعب فيها ،
ونسيت خلالها قدامى الجرى ، وتعودتا السير البطيء كالكبار ...
فوضعت يدي في معطى وسرت إلى جواره في بطة ...

وسمته يقول .

— لقد كبرت .

— وأنت أيضاً .

— هل تذكرين أيام كنا نلعب معاً ؟

— كنت تسبقني في الجرى دائماً .

— وكنت تكسين دائماً في « البلي » .

وضحكنا طويلاً ... ودخل هواء كثير إلى صدرى فأنمشني

وجعلني أحس أنني أسترجع بعض طفولتي المدبرة ...

وقال : أريد أن أسابقك في الجرى .

قلت في ثقة : سأسبقك .

قال : لنرى ! .. !

ورسمنا خطاً على الأرض ... ووقفنا متجاورين . وصاح قائلاً :

واحد ... اثنين ... ثلاثة ... فانطلقنا نجرى الشوط ...

كنت على وشك أن أصل إلى النهاية قبله لكنه أمسكني من ملابسي

من الخلف فتعثرت قدمي ووقعت على الأرض ووقع إلى جوارى ...

ورفعت عيني إليه وأنا ألث فرائته ينظر إلى نظرة غريبة جعلت الدماء

تصعد إلى وجهي ... ورأيت ذراعه تمتد ناحية خصري .. وهمس في

أذنى بصوت غليظ : سأقبلك

انتفص كيانى انتفاضة عنقه عرية وتمنيت فى لحظة ومضت فى
أحاسيسى كالبرق أن تمتد ذراعه أكثر وتضمنى بقوة . . . بقوة . . . ولكن
رغبى العجيبة الحمية تحولت حين خرجت من أعماقى إلى غضب
شديد . . .

وزاده غضبى إصراراً فأمسكنى بيد من حديد . . . ولم أدر من أين
واتنى هذه القوة التى جعلتنى أفدأ بدراعه فى الهواء بعيداً عني وأرفع يدي
إلى فوق ثم أهوى بها على وجهه فى صفعة عنيفة.

* * *

تقلبت فى فراشى حائرة . . مشاعر عرية تتجتاح كيانى
وخيلات كثيرة تمر أمامى . . . لكن خيالا واحداً يستقر أمام عيني . . .
ابن عمى وهو راقداً على الأرض إلى جوارى وذراعه تكاد تلتف حول
خصرى ونظراته الغريبة تخترق رأسى . . .
وأغمضت عيني لأسبح مع خيالى الذى راح يترك ذراعه حتى التفت
حول خصرى بقوة . . . وحرك شفتيه حتى لامستا شفتي وضغطتا عليهما
بعنف . . .

ودمست رأسى تحت الغطاء . .
أيمكن أن أصدق ؟ ! يلى هذه التى ارتفعت وصفعته هى نفسها
بدى التى ترتجف فى يده الموهومة ؟ !
وأحكمت الغطاء حول رأسى لأحول بينه وبين هذا الهمم العريب

لكنه تسرب من تحت الغطاء إلى ... فوضعت الوسادة على رأسي
وضغطت عليه بكل قوتي لأخفق فيه ذلك الشبح العنيد ... وظللت
أضغط على رأسي حتى خفتي النوم ...

* * *

فتحت عيني في الصباح حين بدد نور الشمس الظلام بكل
ما يحوس فيه من أشباح ...
وفتحت النافذة ... ودخل الهواء المنعش إلى صدرى فقضى على
الآثار العالقة بخيالي من أهوام الليل ...
وابتسمت في سخرية من نفسي ، هذه النفس الجبانة التي ترتعد
خوفاً مني وأنا يقظة ثم تسلك إلى فراشي في الظلام فتملأ السرير من حول
خيالات وأوهاماً !

* * *

انتهيت من دراستي الثانوية وكنت أولى فرقتي ... وجلست أفكر
ماذا أفعل ؟
ماذا يمكن لي أن أفعل وأنا أكره أنوثتي وأنقم على طبعتي وأتبرأ من
جسدي ؟ !

لا شيء سوى الإنكار ... التحدى ... المقاومة !
سأذكر أنوثتي ... سأتحدى طبعتي ... سأقاوم كل رغبات
جسدي ...

سأبث لأي وحدي أنني لست امرأة مثلها ... إنني لن أعيش

٢١

حياتي في المطبخ أقتر الصل وأقصص الثوم .. إنني لن أقضي
عمرى من أجل زوج يأكل ويأكل ...
سأثبت لأمي أنني أكثر ذكاء من أخي ومن الرجل ومن كل
الرجال ... وأننى أستطيع أن أفعل كل ما يفعله أبى وأكثر وأكثر ...

٢

كلية الطب ؟ ! نعم الطب . . .
 للكلمة وقع رهيب فى نفسى . . . يذكرنى بنظارة بيضاء لامعة من
 تحته عيان نافذتان تتحركان بسرعة مذهلة . . . وأصابع قوية مدنية
 تمسك بإبرة طويلة حادة مخيفة . . .
 أول طبيب رأيته فى حياتى . . .
 كانت أى ترتجف من الخوف وتتطلع إليه فى ضراعة وخشوع . .
 وكان أخى يتنفّض من الملح . . . وكان أبى راقداً فى الفراش ينظر إليه فى
 استجداء واسترحام . . .
 الطب شىء رهيب . . . رهيب جداً . . . تنتظر إليه أى وأخى وأبى
 نظرة احترام وتقديس .
 سأكون طبيبة إذن . . . سأتعلم الطب . . . سأضع على وجهى
 نظارة بيضاء لامعة . . . سأجعل عيني من تحته نافذتين تتحركان بسرعة
 مذهلة . . . سأجعل أصابعى قوية مدنية أمسك بها إبرة طويلة حادة
 مخيفة . . .
 سأجعل أى ترتجف من الخوف وتتطلع إلى فى ضراعة وخشوع . . .
 سأجعل أخى يتنفّض أمانى من الملح . . . سأجعل أبى ينظر إلى فى
 استجداء واسترحام . . .
 سأنبت للطبيعة أنها بالرغم من ذلك الجسد الضعيف الذى البستنى

٢٣

إياه . . . وبالرغم مما في داخله وخارجه من عورات فسوف أتغلب عليه . . . وسوف أضعه في زنزانة من حديد عقلي وذكائي . . . ولن أمنحه فرصة واحدة ليشدني إلى صفوف النساء العجماوات .

* * *

وقفت في فناء كلية الطب أتلفت حولي . . . مئات العيون تصوب إلى نظرات فاحصة لاذعة . . .

رفعت رأسي ورددت عليهم بمثل سهامهم . . .
لماذا ينظر إلى الطلبة فأغضى طرفي ؟ لماذا يرفعون رؤوسهم وأطرق رأسي ؟ لماذا يدبون على الأرض في كبرياء وثقة وأنا أتعث في خطاي ؟ أنا مثلهم . . . وسأكون مثلهم بل سأفوق عليهم . . .
فردت قامتي الطويلة عن آخرها . . . نسيت النهدين وتلاشي ثقلهما من فوق صدرى . . . شعرت أنني خفيفة وأني أستطيع أن أتحرك بسهولة كما أشاء . . .

لقد رسمت لنفسى طريق حياتي . . . طريق العقل . . . ونقلت قرار الإعدام على جسدي فلم أعد أشعر له بوجود . . .

* * *

وقفت على باب المشرحة . . .
رائحة نفاذة عجيبة . . . جنث آدمية عارية . . . فوق مناضد رخامية بيضاء . . . حملتني قدمي إلى الداخل في وجل . . . واقتربت من إحدى الجثث العارية ووقفت إلى جوارها . . . جثة رجل عارية تماماً . . .

الطلبة من حول ينظرون إلى ويسمعون في مكر وينظرون ماذا أفعل . . .

كدت أشيح بوجهي عن الجسد العاري وأجری خارجة من المشرحة . . . ولكن لا . . . لن أفعل ذلك . . .

ونظرت إلى جانبي ورأيت جثة امرأة عارية وإلى جوارها بعض الطلبة ينظرون إليها في جرأة وقوة . . .

سلطت نظرائي على جثة الرجل في جرأة وقوة . . . وأمسكت المشرط في يدي . . .

• • • :

كان هذا هو أول لقاء سافر لي بالرجل والرجولة . . . فيه فقد الرجل هيئته وجلاله وعظمته الموهومة . . . نزل الرجل من فوق عرشه وارتقى على منضدة التشريح يجوار المرأة . . .

لماذا كانت أمي تضع هذه الفروق الهائلة بيني وبين أخي وتصنع من الرجل إلهاً على أن أقضي عمري كله أطبخ له طعامه ؟
لماذا يحاول المجتمع دائماً أن يقنعني بأن الرجولة امتياز وشرف وأن الأنوثة مهانة وضعف ؟

هل يمكن لأي أن تصدق أنني أقف وأماي رجل عار وفي يدي مشرط أفتح به بطنه ورأسه ؟

هل يمكن للمجتمع أن يصدق أنني أتأمل جسد الرجل وأشرحه وأمزقه دون أن أشعر أنه رجل ؟

ومن هو المجتمع ؟ أليس هو رجال مثل أخى ربه أمه منذ طفولته على
أنه إله ؟ أليس هو نساء مثل أى ضعيفات عاطلات ؟
كيف يمكن هؤلاء أن يصدقوا أن هناك امرأة لا تعرف عن الرجل
شيئاً سوى أنه عضلات وشرابين وأعصاب وعظام ؟ .
جسد الرجل ! ذلك الشيء الرهيب الذى تخيف به الأمهات البنات
الصغار فيحترقن بنار المطبخ لأجل إشباعه ويحلمن بشبحه الليل والنهار !
ها هو الرجل ملقأ أمامى عارياً قبيحاً ممزقاً . . .
لم أتصور أن الحياة سوف تكذب لى أى بهذه السرعة . . . أو تنقسم
لى من الرجل على هذا النحو ... ذلك الرجل الكتيب الذى نظر إلى نهدي
يوماً ولم ير من كيانى شيئاً سواهما . . .
هأنذى أرد سهامه إلى صدره . . .
ها نذى أنظر إلى جسده العارى وأشعر بالغيثان . . .
هأنذى أهوى عليه بمشرطى فأمزقه إرباً . . .
أهذا هو جسد الرجل ؟ !
يغطيه الشعر من الخارج ويمتلئ من الداخل بالعفونات ؟ يعوم
مخه فى سائل أبيض لزج ويغرق قلبه فى دم أحمر غليظ ؟
ما أقبح الرجل ! من خارجه ومن داخله أشد قبحاً !

• • •

تأملت المرأة الشابة التى ترقد تحت مشرطى على المنضدة الرخامية
البيضاء . . . شعرها طويل ناعم مصبوغ باللون الأحمر لكنه مغسول

بالقودمالين ... أسنانها بيضاء لامعة وفي وسطها سنة ذهبية حمراء لكن
جلودها صفراء ... أظافرها طويلة مدببة مطلية باللون الأحمر ، لكن
متابها بيضاء ... ونهداها فوق صدرها ولكنهما ضامران متهلنان ...
قطعتا اللحم اللتان عذبتاني في طفولتي ... اللتان تحددان مستقبل
البنات وتشغلان عقول الرجال وعيونهم ...

ها هما تستقران تحت مشرطي يابستين مجمعتين كقطعتين من جلد
الأحلية !

ما أضحل مستقبل البنات ! وما أتفه ما يملأ عقول الرجال وعيونهم !
والشعر الطويل الناعم الذى عذبتني أوى من أجله سنين طفولتي ... تاج
المرأة وعرش جمالها الذى تحمله فوق رأسها وتضع نصف عمرها في
تصفيقه وتنعيمة وصباغته ... ها هو يستقر أمام عيني في جردل المشرحة
إلى جوار عقونات الجسد وفتافيت الشحم المهمة !

* * *

أحسست بمرارة في حلقى فقلدت بقطعة اللحم من فى ... ووضعت
قطعة الخبز تحت أسناني ... وحاولت أن أمضغ ... لكن أسناني
كانت تتحرك بصعوبة ... حاولت أن أبلع ... أحسست بقطعة
الخبز ، وهى تحتك يجدار بلعوى وتسير في خشونة إلى معدتى ...
أحسست بمعدتى وهى تفرز أحماضها لهضم الخبز ... وأحسست بأمعاني
وهى تنتفخ لتستقبل الأكل ... وشعرت بشيء يجم على صدرى ...
وتيسته ففكرت أنه قلبي يتقبض وينبسط طارداً الدم إلى شرايينى ...

وأحسست بالدم وهو يزحف في عروقي ... وأحسست بالتبضبات الخافتة
التي تصنعها الشعريات الدموية الدقيقة في أطرافى ... وأحسست بالهواء
وهو يلدخل إلى أنفى ويحتاز حنجرتى ليلأ رثىّ ويفخهما ... يفخهما
كالبالونة ... حتى توقف الهواء في صدرى ... وأحسست أنى أختق ...
شفتاى لا تتحركان ودراعى لا تمتدان وعضلات قلبى لا تنقبض... وعروقي
لا تنبض بالدم . . .

آه . . . لقد مت !

وقفزت مغزوعة . . .

لا ! لن أموت وأصبح جثة كهذه الجثث المملودة أمانى فوق المناضدا
وألقيت المشرط من يدى وخرجت من المشرحة أعلو . . . ونظرت
إلى الناس فى دهشة وهم يسرون فى الشارع ويمركون أذرعهم وأرجلهم
بلا تفكير . . . ويمرون وراء الأتوبيس بسهولة ... ويفتحون أفواههم
ويمركون شفاههم ويتكلمون ويتنفسون ويفعلون كل شىء بسهولة شديدة .
وعادت إلى السكينة . . .

إن الحياة لا تزال قائمة . . . وأنا لا زلت أعيش ... وفتحت فى عن
آخره وملأت صدرى بهواء الشارع وتنفس . . . وحركت ذراعى ورجلى
وسرت وسط أمواج البشر .

آه . . . ما أيسر الحياة حين يمارسها الإنسان على سجيها .

* * *

شىء كرى صغير . قطعة بيضاوية من اللحم ترتج تحت مشرطى ...

أمسكتها بيد واحدة ووضعها في كفة الميزان . . .

تحسست سطحها بأصابعي . . . سطح أملس متعرج . . . كلمس
منغ الأرب الذي كنت أخرجه على المائدة من جميعته الصغيرة . . .
هل يمكن أن يكون هذا منغ الإنسان ؟ هل يمكن أن تكون هذه
القطعة الطرية من اللحم هي عقل الإنسان الجبار الذي قهر الطبيعة
فدخل إلى باطن الأرض وصعد إلى مدارات الشمس والقمر . . .
عقل الإنسان الذي استطاع أن يفتت الصخر وينقل الجبال ويخرج
من ذرات الهواء نارا تكفي لتدمير الأرض ؟ !

وأمسكت المشروط وقطعت المنغ إلى أجزاء . . . ثم قطعت الأجزاء
إلى أجزاء . . . ونظرت وتحسست وبحثت ولم أجد شيئا . . . مجرد قطعة
من اللحم الناعم التي تذوب تحت أصبعي . . .

وضعت شريحة منها تحت الميكروسكوب ونظرت . . . ولم أر شيئا
سوى خلايا مستديرة في داخلها نويات مستديرة أيضاً كحبات العنب . . .
كيف تشتغل هذه الخلايا فتجعل الإنسان يعي ويفهم ويحس ؟

وفتحت الكتاب ونظرت إلى الرسومات التي تشرح عمل المنغ . . .
ما هذا ؟ كأنما هي رسومات جهاز معقد كالتليفزيون أو الطائرة
أو الغواصة أو كأنما هي خريطة العالم . . . مئات من المراكز الرئيسية
والفرعية . . . مئات من المحطات . . . ملايين من الخطوط والأعصاب . . .
وعرفت أن قطعة اللحم التي في يدي هي التي تدير كل هذا . . . إنها
تتلقى الرسائل من جميع أعضاء الجسم ثم ترسل إليها الأوامر تحملها

جبال من الأعصاب . . . كيف هذا ؟ هذه القطعة من اللحم تعطي
أوامر إلى القلب والذراعين والساقين ؟

تقول للقلب تحرك وتقول للذراع انخفضي أو ارتفعي وتقول للساق
امشي أو فني ؟ كيف تدبر كل هذه الشبكة المتشابكة من الأعصاب
دون أن تصطدم واحدة بالأخرى . . . ؟

ما الذى يجعلها تفهم سر الرسالة التى ترسلها إليها العين أو الأنف
أو الأذن أو اللسان أو أطراف الأصابع دون أن تخطئ بين واحدة وأخرى ؟
ونظرت من خلال العدسات المكبرة إلى الخلية الصغيرة المستديرة ...
لاشئ فيها سوى كمية ضئيلة من البروتوبلام . . .

كيف تدب الحياة فى هذه الكمية الميتة من البروتوبلام فتتحرك
وتدرك وتفهم ؟

وفتحت كتب الكيمياء والطبيعة والفسولوجيا لأبحث عن هذا السر ...
الكيمياء تقول إنها قد تكون بعض التفاعلات الكيميائية التى تغير من
جزيئات المادة فتتنشط وتتحرك . . . والطبيعة تقول إنها قد تكون نوعاً من
الكهربا التى قد تغير من ذرات المادة فنطلق منها الحياة . . .
والفسولوجيا تقول إنها انعكاسات وإفرازات .

أخذت أقرأ وأبحث وأتقّب حتى حفظت تركيب الجهاز الذى اسمه
الإنسان عن ظهر قلب . . .

حفظت أسماء الأعصاب كلها وحفظت خط سيرها من مركز إرسالها
فى المخ إلى محطة استقبالها فى العضو وبالعكس . . . حفظت أسماء

لأشرايين والأوردة وعرفت طويلاً وعرضها وملمس جدرانها . . . عرفت
تركيب العظام والنخاع والدم . . . عرفت كيف آكل وكيف أرى وكيف
أسمع وكيف أشم وكيف أنام وكيف أحلم
عرفت كيف يندق القلب ولماذا تحمر الوجه . . . وعرفت كيف
أشعر بلسع النار وكيف أبعد نزاعى عنها . . .

عرفت لماذا أعرق خجلاً ولماذا تبرد أطرافى خوفاً .
القلب كالكلييت . . . له حجرات ... الحجرات لها حدران اسمها
عضلات . . . ولها أبواب اسمها صمامات . . .

حدران الحجرة تنقبض فينتح بابها ويطرده الدم خارجها ثم تنبسط
العصلات فتسحب الدم داخلها وينغلق الصمام . . . إن دقات القلب
هى ذلك الخفيف الذى يخذته الدم فى دخوله وخروجه من حجرة إلى
حجرة . . . وهى تلك الأصوات التى تحدثها الأبواب وهى تفتح وتغلق ...
ولكن ما الذى يجعل عضلات القلب تفهم متى يجب أن تنقبض .
ومنى يجب أن تنبسط ؟ رسالة ! رقية يغسلها إليها عصب من الأعصاب
يتصل بمركز فى الصدر يقود إلى مركز من مراكز المخ .

وكيف يصل الدم من الرئتين إلى القلب وكيف يعود إلى الرئتين مرة
أخرى لينقى ويصفى ويقتطرمما علق به من غازات الإنسان الملوثة ؟
كل هذا له نظام دقيق محكم . . . وكل تجويف فى الجسم له
غلاف خاص وله ضغط ثابت معين حيث يستقل الدم من وعاء إلى وعاء
دون أن يتوقف لحظة واحدة

لماذا أشعر بلسع النار في أصبعي ؟ لأن أعصاب الجلد الذي يغطي
أصبعي أرسلت برقية حملها عصب إلى مركز في المخ ترحم الرسالة أنها ألم
الحرق فأرسل برقية سريعة إلى عضلات ذراعي بأمرها أن تنقبض وتبعد
أصبعي عن النار . . .

من منا كان يظن أن الرسائل والبرقيات تروح وتجيء بين الأصبع
في نهاية الذراع أو القدم وبين مركز المخ في قمة الرأس في تلك اللحظة
الخطافة التي تنقضي بين إحساسنا بلسع النار وبين إبعادنا للذراع عنها ؟ .
أنا لا أعرق خجلاً إلا بعد أن تمّ المفاوضات بين مركز المخ وبين
غدة العرق وتنتهي إلى أن يأمر المخ الغدة بأن تسكب دموعها .

إن أطرافي لا تبرد إلا بعد أن تصل برقية الخوف إلى المخ فيصدر
أمره إلى شعيرات الجلد أن تنكمش على نفسها لتهرب ما فيها من دماء
استعداداً لما قد يصيبها من جراح . . .

عرفت كيف تنتقل الصورة من العين إلى المخ ليراها ويفهمها ثم
يبرق إلى العين يأمرها بالرؤية . . . عرفت كيف ينتقل الصوت من
الأذن إلى المخ ليترجمه ويفهمه ثم يأمر الأذن بالسماع . . . عرفت أن
النبات الحي يصبح داخل نار القرن خبزاً ميتاً وأن الخبز الميت يتحول في
جوف الإنسان الساخن إلى نسيج حي ...

عرفت أنني حين أنام فإن جزءاً من غنى يظل ساهراً يرعاني . . .
ويرعى دقات قلبي . . . ويشرف على همسات أنفاسي . . . وينظم
مناظر أحلامي ... يرعاني ويحرص على ألا أقع من فوق السرير وأنا

أعطى صهوة الجواد صاعدة إلى السماء ... أو حين أسقط من طبقات
الجو وأغرق في شلالات المحيط ... ويوقظني من قبل أن أبلل فراشي
فزعاً حين يغرز وحش الغابة أستانه في جسدى ...

واقفتح أمامى عالم واسع جديد ... وشعرت بالرهبة أول الأمر ولكنى
سرعان ما أوغلت فيه بنهم وقد استولى على جنون المعرفة ... كشف لى
العلم سر الإنسان وألغى تلك الفروق الهائلة التى حاولت أى أن تضعها بينى
وبين أخى .

أثبت لى العلم أن المرأة كالرجل والرجل كالحَيوان ... المرأة لها
قلب ومنغ وأعصاب كالرجل تماماً ... والحَيوان له قلب ومنغ وأعصاب
كالإنسان تماماً ... ليست هناك فروق جوهرية بين أحد منهم وإنما
هى فروق شكلية تتفق جميعاً فى الأصل والجوهر .

المرأة تحتوى فى أعماقها على رجل والرجل يخفى فى أعماقه امرأة ...
المرأة لها أعضاء الرجل بعضها ظاهر وبعضها ضامر والرجل تجرى فى
دعائه هرمونات مؤنثة ...

الإنسان يفتق قفص صدره على وحش غابة كاسر والحَيوان فى
داخله إنسان ...

الإنسان له ذيل ... ذيل قصير مبتور فى فقرة صغيرة فى مؤخرة
عموده الفقري . والحَيوان له قلب يدق وله دموع تسيل ...

وفرحت بهذا العالم الجديد الذى يضع المرأة إلى جوار الرجل إلى
جوار الحَيوان .

فرحت بالعلم وأحسست أنه إله قوى جبار عادل يعرف أسرار كل شيء فأمنت به واعتنقته ..

* * *

لم أكن أرى منه إلا وجهه الصغير ... وعينيّ الكليلتين تبحثان في يأس عن ملامح تعبر عن الرحمة ... وذراعيه الرفيعتين العاريّتين ترتجفان من البرد وقد اختفى جسده الصغير وتحت أقراص معدنية صلبة تخرج منها خراطيم طويلة من المطاط تنهى في آذان آدمية تشبه آذان الأرناب ... وترتفع السماعات لتكشف لحظة عن أجزاء من صدره العاري ثم تهبط مكانها سماعات أخرى تضغط على ضلوع الطفل الصغير فهبط هي الأخرى تحت ثقل الأقراص المعدنية الصلبة تلتف حولها أصابع آدمية بعضها غليظ مفرطح وبعضها ناعم طليت أطرافه باللون الأحمر ...

وسمعت صوت الأستاذ الطيب يقول :

— تقدى واسمعى دقات هذا القلب .

ودفعتني الأيادي المتراحمة على الطفل المريض ... ووقت أنتظر والسماعة في أذني حتى تخلو مساحة صغيرة من الجسد النحيل . . . وارتفعت إحدى السماعات عن صدر الطفل فرأيت مكانها دائرة حمراء محفورة في الجلد المحترق ...

وترنحت السماعة في يدي لا أستطيع أن أضعها على الجسد الملتهب وشعرت بيلدي تهتز بلا وعي ... ودفعتني في تلك اللحظة يد قوية

وجرفني الزحام بعيداً عن السرير واستولى على مكاني طالب على عينيه
نظارة سميكة دس سماعته بسرعة كأنه لا يبصر الدائرة المحفورة على
صدر الطفل . . .

آه . . .

انطلقت الآلة الضعيفة الواهية من بين شفتي الطفل الياستين ضاعت
في الزحام الصاخب المتلاطم ولم يسمعها أحد . . .
وشعرت برغبة في الصراخ بأعلى صوتي . . . وأحسست بيدى تقاومان
عقلي وترغبان في الانطلاق من عقالمنا وتنهالان ضرباً ولطماً على هذه
الأصابع القاسية الملتفة حول السماعات تبعدانها عن صدر الطفل .
لكني لم أستطع . . . لم أفتح فمي ولم أحرك يدي . . . لا زال في
رأسي عقل يقظ قوى يؤمن بالعلم . . . وإله العلم جبار لا يعرف
الرحمة . . .

• • •

وقف أمامي بساقيه العاريتين المعوجتين يغطيها الشعر الكثيف ونظر
إلى نظرة اعتراض وقال : هل أخلع سروال أيضاً ؟
ونظر إليه الأستاذ نظرة جامدة قاسية وقال آمراً : اخلع كل ملابسك !
وتطلع المريض إلىّ في ذعر وأمسك حزام سرواله في تردد وخوف . . . ولم
يمهله الأستاذ فاندفع نحوه وشد سرواله إلى أسفل فأصبح الرجل أمامنا
عارياً تماماً . . .

ارتديت القفاز واقتربت منه . . . وتململ الرجل في خجل

واستياء كيف تعريه امرأة وتفحصه ؟ ! وحاول أن يبتعد عنى لكن الأستاذ ناوله صفقة عنيفة على وجهه جعلته يستسلم لأصابعى الفاحصة كجثة ميتة .

إله العلم لا يعرف الرحمة ولا يعرف الحياء

ما أقساه ! وما أشد عذابى فى محرابه !

وفقد الجسم الحى احترامه وهيبته . . . أصبح فى نظرى وتحت أصابعى كالميت سواء بسواء . . . وتفكك فى عقلى إلى مجموعة من الأجهزة والأعضاء .

• • •

الليل بارد موحش . . . والظلمة ساكنة ميتة . . . والمستشفى الكبير بأنوار نوافذه قابع فى السواد كضبع متوحش . . . وأنات المرضى وسعالم الممزق يهتك سائر الليل الداكنة . . . وأنا . . . أنا أقف فى نافذة حبرتى . . . وحيدة . . . أتأمل الزهرة البيضاء الصغيرة التى تفتح إلى جوارى فى زهرية الورد . . . وألمسها بأصابعى ويتفصص كيانى كأننى ميت يحس لأول مرة بلمس شئ حى . . . وأقرب أنفى منها أشم عيبرها وأشعر كأننى سجين مؤبد يضغ أنفه بين أسلاك نافذته الحديدية وبشم عيبر الحياة . . . وتحسست رقبتي . . . ولمست أصابعى خراعى الساعاة المعدنيتين وهما تلتفان حول رقبتي كحيل المشقة . . . والباطو الأبيض يحثم على جسدى وتفوح منه رائحة الكؤول والأثير وصبغة اليود . . . آه . . .

ماذا فعلت بنفسى ؟ !

ربطت حياتى بالمرض والألم والموت . . . أصبح عملى كل يوم هو أن
أكشف أجساد الناس وأرى عوراتها وأتحنس أوارامها وأحلل
إفرازاتها . . .

لم أعد أرى فى الحياة إلا مرضى واقدين فى الفراش . . . ذاهلين أو
باكين أو غائبين عن الوعى . . . عيونهم كليله صفراء أو حمراء . . .
أطرافهم مشالة أو مبتورة . . . أنفاسهم متقطعة . . . أصواتهم حشرجة
أو أنين . . .

أيمكن أن أحتمل هذه الحياة إلى أمد طويل . . . طول عمرى ؟ !

وشعرت بانقباض شديد يشبه الانقباض الذى يشعر به السجين
المؤبد حين تختفى بارقة الأمل فى الإفراج . . .

وخرجت من حجرى . . . وجلست فى الصالة الكبيرة وفتحت مجلة
طبية وحاولت أن أقرأ . . . لكن أفكارى تمررت بالرغم عني إلى جناح
الأطباء . . . حيث ينام زميل الطبيب . . . وقد قسمنا نوبتجية الليل
بيننا . . . هو ينام الست ساعات الأولى وأنا الست ساعات الأخيرة . . .
فكرت من حيث لا أدري أنني أجلس وحدى فى منتصف الليل مع
رجل لا يفصلنى عنه إلا باب حجرته المغلق . . .

جاءتنى هذه الفكرة وأنا يقظة مفتوحة العينين كوه من أوهام
الليل . . . فشعرت بالخوف . . . لا . . . ليس الخوف . . . ولكن
القلق . . . لا . . . ليس القلق . . . ولكن الرغبة . . . لا . . . ليست

الرغبة . . . ولكنه شعور مزعج غريب أرغم عيني على اختلاس النظر
إلى الباب المغلق من حين إلى حين .

• • •

دق جرس التليفون إلى جوارى وجاعنى صوت الممرضة النوبتجية
يدعونى إلى إغاثة مريضة . . .

انقضت لحظة خاطفة ووجدتني أوقف في عنبر من عنابر المستشفى
يجوار مرير أبيض ترقد عليه المريضة . . . وكانت عروساً شابة . . .
وضعت الساعة على صدرها وسمعت صوت دقات قلبها . . . كانت
صمامات قلبها مثقلة بتلك الألياف والأنسجة التي تراكمت عليه بفعل
الروماتزم ، وأصبحت تحدث أصواتاً نثازاً لا تتفق مع ذلك النغم السابق
الذي كنت أسمع له دقات القلب السليم . . .

غلظت الصمامات وضاعت مرونتها فعجزت عن أن تغلق حجرات
القلب بإحكام فأصبح الدم يتسرب منها في خرير يشبه خرير الساقية
الخربة . . .

ونظرت إلى المرأة الشابة . . . ورأيت بريق الأمل في عينيها وقالت لي
في فرحة : ماذا أسمىه ؟ إنه أول ابن لي .

قلت لها وأنا أخفي عينيها بقناع التخدير : لا أدري . . . إننا لانعرف
بعد هل سيكون ولداً أم بنتاً ؟

ومرت لحظات . . . لحظات رهيبة . . . ورأيت شعر الطفل الأسود
الناعم يطل من الظلام إلى النور يحوطه فكا العلم المعدنيان الصلبان . . .

ووضعت السماعة على قلب المرأة إن قلبها يناضل ويئن . . . والدم ينجر
خريراً ضعيفاً والصمامات تصفق تصفيقاً شديداً . . . ثم رأيت الطفل
يندفع إلى الخارج بقوة ويصرخ صرخة عالية وتهلل وجهي في فرحة ودهشة
وأنا أرى الإنسان وهو يفتح عينيه الصغيرتين لأول مرة في حياته ويرى العالم
الواسع .

لكني أقف بعد لحظة على سكون رهيب كسكون القبور . . . ضاع
خبرير الدم وتوقفت الصمامات عن التصفيق . . . ونظرت إلى المرأة . . .
كان وجهها صامتاً بارداً كتمثال من الجرانيت . . . وكان صدرها
هامداً لا يعلو ولا يهبط كصندوق من الخشب . . .
ماذا حدث ؟

لقد كانت منذ لحظات تتكلم وتتحرك وتتنفس !
وأسرعت أستجد بكل ما يعرفه الطب لانتشال حياة الإنسان من
برائن الفناء . . .

حققت في وريدها المحاليل والمنبهات . . . دفعت إلى أنفها الهواء
والأكسجين . . . استعنت بالتنفس الصناعي لأحرك رئتيها . . . غرست
في قلبها إبرة طويلة ليتحرك . . . فتحت صدرها وأخذت أدلك القلب
لتعود إليه الحياة . . . تفخت في فمها ولطمتها على وجهها لتحس . . .
ولكن لا . . . لا شيء يحدث . . . لا طب ينفع ولا علم يستطيع . . .
كل شيء عاجز . . . عاجز عن أن يجعل هذا الجفن الصغير المغمض
يرتفع عن العين مرة واحدة . . . واحدة فقط .

وتأملت المولود الصغير وهو يرفس بقدميه بين يدي الممرضة ويكي ويصرخ . .

أليس هذا عجيبي ؟ عجيبي جداً ؟ . . . أن تخرج هذه القطعة الإنسانية الحية من هذا الجسد الميت الجلامد الراقد على هذه المنضدة المعدنية الباردة ؟

وأمسكت رأسي بيدي . . وتهاويت على مقعد يجوارى . . .
لماذا يعجز العلم ؟ ذلك الإله الجبار الذي حنيت له رأسي ؟ لماذا يعجز عن أن يفسر لي كيف تفسد صمامات القلب بفعل الروماتزم ؟
كيف توقف قلب المرأة الشابة إلى الأبد ؟ كيف ولد طفل حي من جسد امرأة تموت ؟ كيف تدب تلك الشرارة الصغيرة من الحياة في المادة الميتة ؟ كيف تندلع الحياة وكيف تنطفئ ؟ من أي عالم يخرج الإنسان وإلى أي عالم يذهب ؟ ! . . .

خرج الصراخ الذي في أعماقي من نطاق الرجولة والأنوثة إلى الإنسانية جمعاء . . .

رأيت الإنسان تافهاً بالرغم من عضلاته وخلايا مخه وتعقيدات شرايينه وأعصابه .

ميكروب صغير لا يرى بالعين يخلل مع الهواء إلى أنفه فيأكل خلايا رثتيه أكلاً . . .

فيروس مجهول يصيبه من حيث لا يدري فيجعل خلايا كبده أو طحالها أو أي شيء آخر تتكاثر يخنقون وتلتهم كل ما حولها الهاباً . . .

قطرة صغيرة لزجة تنقل من إحدى لوزه في الحلق لتصل إلى قلبه
فتشل حركته . . .

قطرة دم واحدة يصيبها التجلط في إحدى خلايا مخه فيرقد في الفراش
بلا حراك .

شكة إبرة رفيعة في أصغر أصبع من أصابعه تفقده السمع والبصر
والكلام . . .

فقاعة صغيرة من الهواء تسرب إلى دمه صدقة فيصبح جثة هامدة
كجثث الخيول والكلاب تنعفن وتحلل

هذا الإنسان المغرور الجبار . . . الذي لا يكف عن الحركة
والضجيج والتفكير والابتكار ... هذا الإنسان يحمله على الأرض جسد
بينه وبين الفناء شعرة رفيعة جداً ... إذا قطعت . . . ولا بد لها أن تقطع ...
فما من قوة في العالم تستطيع أن توصلها . . .

نزل العلم من فوق عرشه ووقع أمامي صريعاً عارياً عاجزاً كما وقع
الرجل من قبل . . .

وتلفت حولي حائرة قلقة . . .

لقد حطم العلم إيماني القديم ولم يهديني إلى إيمان جديد .
وأدركت أن طريق العقل الذي عاهدت نفسي أن أسلكه طريق
ضحل قصير في نهايته سد كبير . . .

وفتحت عيني . . . ترى ماذا أفعل ؟

هل أعود أدراجي أم أتكور إلى جوار هذا السد وألتصق به وأحتمي

٤١

فيه ؟ ولم يكن لي مجال للاختيار . . . فقد أسلمني التحدى والمقاومة
إلى نوع من القوة والإرادة لم أستطع معهما أن أتكور إلى جوار شيء أو
ألتصق بشيء أو أحتمي في شيء . . . فإياك إذا كان هذا الشيء سداً
كبيراً ليست له منافذ .

وجدت قدماً تتجهان بي إلى طريق جديد .

• • •

٣

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملنى بعيداً عن المدينة . . .
بعيداً عن أساتذة العلم ومعامله . بعيداً عن أمى وأهلى . . . بعيداً عن
الرجال والنساء على السواء .

وإحدى القرى النائية الحادثة اتخذت لنفسى مسكناً صغيراً . . .
جلست فى شرفة بيتى الربيع أنقل بصرى من الحقول الخضراء الفسيحة
الآمنة إلى السماء الزرقاء الصافية . . . وأشعة الشمس الدافئة تسقط على
جسدى الممدود على الأريكة المريحة . . . وتمطيت وتناهت فى تكاسل
للبد . . .

لأول مرة أجلس وحيدة مع نفسى . . . وأحسست أننى أخلع عن
نفسى كل أنوثتها التى تراكت عليها طوال السنين الماضية من حياتى . . .
ووقفت نفسى أمامى عارية . . . عارية تماماً . . . وبدأت أنفقد
وأتحسسها . . . وأكشف عليها كشفاً دقيقاً . . .

لم أملك المشروط فى يدي . . . ولم أضع الساعات فى أذنى . . . ولكنى
تجردت من كل شئ . . . تجردت من علمى وطبى . . . وتجردت من
السنين التى عشتها . . . من الناس الذين رأيتهم وعرفتهم . . . من الصراعات
التي عاصرتنى وأسلمتني إلى ذلك السد الخائل الذى وقف فى طريق
تفكيرى . . .

وتجردت من تفكيرى أيضاً . . . وبدأت أحس . . .

لأول مرة في حياتي أحس دون أن أفكر . . أحس بوقع الشمس الدافئة على جسدى . . أحس بتلك الخضرة الآمنة الجميلة التي تكسو الأرض . . . أحس بتلك الزرقة العميقة الفاتنة التي تغلف السماء .

لأول مرة في حياتي ألتقي بالطبيعة وجهاً بوجه . . . ولأول مرة أرى لها وجهاً جميلاً ساحراً لا يفسده شيء . . . لا يفسده ضجيج المدينة الأجوف . . . ولا تفسده أنوثة المرأة الدليلة الأسيرة . . . ولا رجولة الرجل المغرورة المتخطرة . . . ولا ثرثرة العلم القاصر العاجز . . .

أيقنت أن الطبيعة إله جبار جميل يحاول الإنسان الضئيل المغرور أن يلبسه أثواباً رخيصة قبيحة لمجرد أن يرضى غروره ويشعر أنه يفعل بعمره القصير شيئاً . . . أى شيء .

وأحسست أن قلبي يخنق . . . وأن خفقاته تملأ نفسي بشحنات غريبة من العواطف والمشاعر . . .

• لأول مرة يخنق قلبي فأحس دون أن أفكر . . . دون أن يشغل عقلى ويرسم عضلات القلب وشرائبه ويزن كميات الدم التي تندفع منه . . أصبحت لحفقات قلبي لغة جديدة لا يستطيع أن يفسرها العلم أو الطب . . لغة أفهمها بأحاسيس الغضة البكر ولا أستطيع أن أفهمها بعقلي المجرب العجوز .

أحسست أن العاطفة أكثر ذكاء من العقل وأكثر رسوخاً في قلب الإنسان وأكثر اتصالاً بتاريخه البعيد وأكثر صلداً وتجاراً بامع طبيعته بشريته وتمددت على الأريكة أكثر . . . فردت ساقي عن آخرها فاستسلمت

لعاطفتي الدافئة الجديدة تدغلج جسدي .

وتنهت . . . ها هو جسدي الذي حكمت عليه يوماً بالإعدام . . .
 حسد المرأة الأنثى الذي دبخته ذبحاً عند قدمي إله العلم والعقل . . . ها هو
 جسدي تدب فيه الحياة من جديد .

واكتشفت أنني ضيعت عمري الذي قات في صراع ليس له
 أرض . . . ضيعت طموحي وصباي وفجر تبايني في عراك عنيف . . .
 ضد من ؟ ضد نفسي . . . ضد إنسانيتي . . . ضد غريزتي . . .

من أجل ماذا ؟ لا شيء . . . هأنذا الآن أترك كل شيء وأبدأ
 من جديد . . . أبدأ من أول الحياة . . . أبدأ من الأرض البسيطة البدائية
 التي تنبت من تلقاء نفسها الحب والقمح . . . أبدأ من الطبيعة البكر
 التي تغلف الأرض منذ ملايين السنين . . . أبدأ من الإنسان الريفي
 الساذج الذي يأكل النباتات من الأرض ويمارس غريزته تحت الشجر
 ويأكل ويترب ويلد ويمرض ويموت دون أن يسأل لماذا أو كيف ؟
 ابتسمت . . . ثم ضحكت . . . ضحكت بصوت عال سمعته
 بأذني . . .

كانت الضحكة تنقلص على شفتي وتموت دون أن أسمع لها صوتاً . . .
 بعد كانت أمي تقول لي دائماً إن البنت يجب ألا تضحك بصوت عال
 سمعه الناس .

وفتحت فمي عن آخره ورحت أضحك وأهقه . . . ودخل الهواء
 إلى صلبري . هواء نقي نظيف ليس فيه دخان وليس فيه كربون وليس فيه



علوم الطب وليس فيه آداب المجتمع .

هواء لا يهيمى تركيبه ولا مضمونه ولكنى أحس أنه هواء منعش
يرطب جوفى الساخن . . .

وامستلمت لأشعة الشمس وتركها تسقط على جسدى . . . أشعة
نقية صافية لا تشوهها تحاليل العلم إلى أشعة بنفسجية أو حمراء حارقة
أو غير حارقة .

وجاء الرجل الرينى الطيب الساذج يحمل صينية الأكل . . . فطير
مثلت وقشدة وزبدة وييض . . . وأكلت بشية تشبه شهيتى وأنا طفلة
قبل أن أبلغ التاسعة من عمرى . . . نسيت تعاليم أمى عن كيف تأكل
البنث . . . ونسيت تحذيرات الطب من القشدة والزبدة . . . وملأت
فى بالطعام على آخره . . . شربت الماء البارد من الكوز الفخارى بصوت
عال . . . وسقط الماء من بين شفتى وبلل ملابسى . . .

أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ثم تركت الأريكة
الساخنة وتمددت على الأرض الرطبة . . . ووضعت وجهى على التراب
ورحت أشم باطن الأرض وأنتشى بذلك الإحساس الدفين أننى من
الأرض وإلى الأرض .

وهبت نسمة رقيقة رفعت الرداء عن ساقى . . . ولم يصبى ذلك الذعر
القديم الذى كنت أحس به حينما تعرى ساقى .

كيف استطاعت أى أن ترسب فى نفسى ذلك الإحساس البغيض
بأن جسدى عورة ؟ إن الإنسان يولد عارياً ويموت عارياً ، وما تلك

الأثواب التي يلبسها إلا زيف يحاول أن يغطي به حقيقته .
وتركت الهواء يرفع عنى أرديتى . . . وأحسست فى تلك اللحظة
أننى ولدت من جديد وولدت معى عاطفتى . . . ولدت لتوها حقاً ،
ولكنها ولدت عملاقاً جباراً يريد أن يعيش ويطالب بحقه فى أن
يعيش . . .

* * *

سمعت صوت طرق شديد على باب بيتى فى منتصف الليل . .
ورأيت بعض الفلاحين يحملون رجلاً عجوزاً مريضاً . . .
فتحت لهم بابى وارثديت معطى الأبيض ووضعت الساعة على صدر
المريض . . .
اختلط فى أذنى دقات القلب بصوت أنين فرفعت عينى إليه . . .
ورأيت عينى الرجل تتعلقان بعينى وتشبهان بهما كغريق على وشك الموت
يتطلع إلى طوق النجاة .
وكأنما نسيت الطب . . . كأنما لم أكشف على مريض قبل اليوم . .
كأنما أرى لأول مرة فى حياتى عينى إنسان يتعذب . . . كأنما أسمع لأول
مرة صوت الأنين .

كيف كنت أكشف على المرضى كل تلك السنوات التى مضت ؟
كيف استطاع أساتذة الطب أن يوهمنى أن المريض ليس إلا كبدأ
أو طحالاً أو مجموعة من الأمعاء أو المصارين ؟ كيف جعائنى أنظر فى
العيون فلا أرى نضارتها وأصوب إليها كشافى الكهرى وأقلب جفونها

بأصابعي ؟ كيف جعلوني أفتح حلق الناس وأنظر فيها ولا أسمع
الآنين ؟

وأحسست برجفة عنيفة تهز كيائي .
لأول مرة في حياتي أحس أن المريض إنسان كامل . . . كل
لا يتجزأ . . .

لأول مرة تخترق نظرات التعب والمرض سطح عيني وتدخل إلى
نفسي . . .

لأول مرة يجتاز صوت الآنين المسافة بين أذني وقلبي . . .
ووقفت أمام المريض كالشدة . . . عيناى مشدودتان إلى عينيه . . .
وأذناى مرهفتان تلتقطان هسات أنينه الخافت وروحي خرساء ترقب
مشهد عذاب الإنسانية العجيب . . . وعقلي صامت متوقف يستوعب
معنى الحياة الجديد .

ووضعت يدي على قلبي وأسندت رأسي إلى الحائط . . .
شيء في العينين الفاترتين البائستين يجعل قلبي ينمزق . . . شيء في
الآنين الخافت يجعل نفسي تخور . . . شيء غريب لم أعرفه من
قبل . . . لم أحسه . . . لم أعانيه . . .

الآلم ؟ ! نعم الآلم . . .
لأول مرة في حياتي أتألم . . . شعور أليم . . . ولكنه
عميق . . . عميق . . . نفذ إلى طبقات نفسي البعيدة حتى بلغت مجال
الآلة . . .

تأملت ولكنى شعرت بلذة الألم . . . شعرت بلذة إنسانيتى وهى
تمارس إمكانياتها المعطلة وتستكشف أبعادها المجهولة . . .
وكأنما شرب كيانى إحساسى باللذة عن آخره . . . وكأنما امتصت
روحى إحساسى بالألم كله . فأحسست بدوار شديد وتهاوت على مقعد
إلى جوارى وأغمضت عيني . . . و . . . وبكيت . . . بكيت كما لم
أبك أبداً . . . كأنما لم تعرف عيناي اللعوم . . .
انهمرت دموعى الساخنة المكبوتة كسيل عاصف كاسح . . . وتركت
العنان للدموعى . . . لم أحاول أن أقف فى طريقها . . .
فلأبك كما تشاء عيونى . . . ولأغسل عقلى من ذلك الغبار الكثيف
الذى تراكم عليه ولأزح عن قلبى تلك الغشاوة المعتمة العازلة . . . ولأطلق
سراح روحى من قلب تلك الزلزلة الحديدية القاتلة . . .
وامتسلمت للألم . . .
وأفقت على صوت . . . صوت ضعيف خائر ولكنه صوت دافئ . . .
سمعته يقول : لا تبكى يا دكتورة . . . أنا بخير . . .
وفتحت عيني ونظرت إليه . . . فرأيت على وجهه ابتسامة . . .
ابتسامة هادئة واهنة ولكنها تحمل فى ثناياها العطف والحنان . . .
كأنما هو الذى يحنو على . . . كأنما هو الذى يريد أن يأخذ يدي
ويعطينى من عنده . . . كأنما هو الذى يملك العلم والصحة والقوة وأنا
لا أملك شيئاً . كأنما تضاءلت علة الجسد إلى جوار علة الروح فأحس
أنه الطبيب وأنا المريضة .

لم أكن أتخيل في تلك اللحظة التي فقدت فيها إيماني بالإنسان وأيقنت
أن ققاعة هواء أقوى منه ومن حياته أنني سأعود أومن به من جديد .
لم أتخيل أنني أفقد إيماني بالإنسان وأنا وسط المدينة الباهرة بحضورها
ومبانيها وطائراتها وصواريخها ؛ ثم أعود أومن به في كهف مهجور مظلم .
لم أتخيل أنني أفقد إيماني بالإنسان وأنا بين أساتذة الطب وأئمة العلم
ثم أعود فأومن به على يد رجل رقيق عجوز مريض لا يملك إلا جابابه
وابتسامته . . .

ابتسامة صغيرة انفجرت عنها شفتان يابستان ولكنها كانت تحمل في
طياتها معنى الحياة بأسرها . . . ذلك المعنى الذي يضع من الناس في
الزحام . . . ذلك المعنى الذي يضل عنه العلم وسط ضجيج الآلات ويقصر
عن تفسيره العقل . . . الحب . . .

حب الحياة بكل ما فيها من لذة وألم . . . من صحة ومرض . . . من
مجهول ومعلوم . . . من بداية ونهاية . . .

الحب ١٩

خفقت قلبي للكلمة الجليلة . . . وسرت الرجفة في أوصالي . . . ودب
الحنين في جسدي واندلع اللهب في قلبي

. . .

كيف يمكن لي أن أعيش الآن ؟

أنا الطفلة النهمة بعواظي البكر وأنا الطيبة المحجرة بعقلي العجوز ؟
خمس وعشرون سنة مضت من عمري دون أن أشعر لحظة واحدة

• ١

أننى امرأة ! دون أن يخفق قلبي مرة واحدة لرجل ! دون أن نغمس شفتي
تلك الأعجوبة التي اسمها القيلة ! دون أن أعرف تلك الفترة الملتهبة من
عمر الإنسان . . . المراهقة .

ضاعت طفولتي في صراع ضد أمي وأخي ونفسي . . . والهمت كتب
العلم والطب مراهقتي وفجر شبابي . . . وهأنذا الآن طفلة في الخامسة
والعشرين من عمرها . . طفلة تريد أن تجرى وتلعب وتنطلق
وتحب . . .

• • •

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملني بعيداً عن نفسي . .
لقد تعرفت عليها وعرفتها ولم أعد بحاجة إلى أن ألتصق بها ذلك الالتصاق
الشديد الذي يفصلني وإياها عن الحياة . . . الحياة التي التفتت جوهر
معناها من تراب الأرض كما تلتقط الحمامة بمنقارها حبة القمح . . .
الحياة التي أصبحت أحبها بكل خلية من كيان روحي وجسدي وأحس
برغبة عارمة في أن ألتصق بها التصاقاً شديداً . . .

كيف لي بعد كل هذا أن أغلق نفسي داخل تلك العزلة الموحشة ؟
كان لابد أن أعود . . . وعدت . . . عدت إلى بيتي وأهلي وعلى
وعبادتي . . . فتحت ذراعي للحياة وعانقت أمي، ولأول مرة أحس أنها
أمي . . . وعانقت أبي وفهمت معنى بنوني . . . وعانقت أخى وعرفت
شعور الأخوة . . . و . . . وتلفت حولي أبحث عن شيء . . . شيء
لا زال يقصيني . . . عن أحد لا زال غائباً عني . . . من هو ؟

أعماق تناديه . . . وروحي تهتف به . . . من هو ؟ من ؟

* * *

حنين جارف عتيف يهز روحي وجسدى . . . حنين روح ظامئة
للحب أطلق العقل سراحها . . . حنين جسد بكر انطلق لتوه من
زنازاته الحديدية . . .

ترى ماذا يكون اللقاء بين المرأة والرجل ؟
الليل أصبح طويلا . . . والأوهام والخيالات تعشش كل ليلة حول
سريري . . .

ذراع طويلة قوية تلتف حول خصري . . . وجه رجل يقترب
مى . . . له عينان تشبهان عيني أبى . . . وله شفتان تشبهان شفتي ابن
عمى . . . ولكنه ليس أبى وليس ابن عمى .
ترى من يكون ؟

أحاديث البنات في المدرسة تطفو على سطح ذاكرتي . . . التهديدات
. . . الشبهات . . . أحلام المراهقات . . .
كأني لم أشرح جسد الرجل . . . كأني لم أعريه . . . كأني لم أر قبحه
وبشاعته . . .

هل نسيت ؟ . . . لا أدري . . . ولكنني نسيت . . . وعاد إلى
الجسد الحى سحره وغموضه . . . كيف نسيت ؟ . . . لعل أنوثتي
خرجت من زنازاتها عنيفة جامحة طوحت في طريقها بكل ذكريات
العقل . . . أو لعل حنين روحي الجارف نزع من مخيلتي صور الجسد

٥٣

القيححة . . . أو لعل انتفاضة القلب القوية تفضت علوم الطب عن
وأسى . . .

والصباح لم يعد يطلع . . . ودفع السرير أصبح لهياً . . . وأوهام
الليل لم يعد يبددها نور .

• • •

٤

دق جرس التليفون بجوار رأسي ففتحت نصف عيني ونظرت في الساعة . . . كانت الثانية صباحاً . . . ورفعت الساعة في كسل وجاءني صوت ملهوف يقول :

– اتقلني أُمي من الموت يا دكتورة .

قفزت بسرعة من السرير الدافئ وارتديت معطفي وخطفت حقيبي الصغيرة المعدة لحالات الإسعاف السريع وركبت عربتي وانطلقت إلى بيت المريضة .

وضعت الساعة على قلبها . . . فسمعت دقات ضعيفة خائرة . . . دقات قلب عجوز أصابه الوهن والشيخوخة وقد أوشكت الحياة أن تغفل منه .

خلعت الساعة وتلفت حولي . . . وتنهت إلى وجود رجل طويل واقف إلى جوارى في عينيهِ نظرة قاتٍ شديد .

وسألني : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وخرجت من الحجرة دون أن أرد عليه فخرج ورأني . . . ووقفت في صالة البيت فوقف أمامي وسألني مرة أخرى في لهفة شديدة : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وقلت له في هدوء : لا . . . ليست خطيرة . . . إنها تموت فقط .

وحملق في فزع ودهشة وقال : تموت ؟ لا ! لا يمكن !



وأمسك رأسه بيديه وسأوى على مقعد إلى جواره وأخذ يبكي بصوت مكوم .

انتظرتة حتى فرغ من نشيجه ورفع عينيه إلى وقلت له :

— كل الناس يموتون .

— ولكنها أى يا دكتورة ؟

— لقد أدركتها الشيخوخة ومن غير الطبيعي ألا تموت .

وجفف عينيه فددت يدي لأصافحه وأنا أقول :

— دعها في حجرها تودع حياتها في هدوء .

وغلبته دموعه مرة أخرى ففتحت الباب وخرجت .

* * *

كنت أجلس في مكبي وبين يدي كوب الينسون الدافئ الذي يصنعه التمورجى لى بمجرد أن يخرج من العيادة آخر مريض. وأصابنى المتعبة تلتف حول الكوب تلتمس من دفئه بعض الراحة والاسترخاء. وجهى المرهق يقترب من البخار المتصاعد من الكوب لأشم الينسون الذى أحب رائحته أكثر من مذاقه . . . حين دخل التمورجى وأعلن عن وجود رجل يريد مقابلتى . . .

ودخل الرجل. . . وعرفته . . . فوقفت وصافحته وجلس أمامى . . . ولحمت الربطة السوداء حول عنقه فقلت له : البقية في حياتك .

قال وهو مطرق : أشكرك يا دكتورة .

وظل مطرقاً لحظة طويلة فأمسكت كوب الينسون وأخذت منه رشفة

ورفع عينيه ونظر إلى الكوب في استطلاع فسألته : أتشرب كوباً من
البنسون ؟

ونظر إلى مندهشاً وقال : بنسون ؟

وضحكت لدهشته فابتسم وقال : جئت لأشكرك .

— لم أفعل شيئاً .

— نزلت من بيتك في هذا الوقت المتأخر .

— إنه واجب الطيب .

— قلت لي الحقيقة .

— الحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها .

— إنه شيء مؤلم جداً .

ولم أرد . . . ونظر إلى لحظة ثم قال :

— ألا تتألمين لمنظر الإنسان وهو يموت ؟

— هذا هو أخف ألم في حياتي .

— وما هو أقمى من الموت ؟

— المرض الذي ليس له دواء . . . العجز الذي ليس له شفاء . . .

التشويه الذي يصيب الإنسان في جسده أو عقله .

— هل رأيت كل هذا ؟

— هذه حياتي وحياة كل طيب .

— اعذريني يا دكتورة . . . أنا لا أتعامل مع الإنسان الذي هو

معرض للمرض والموت . . . إلى أتعامل مع الصخر .

- مهندس ؟
- نعم .
- سكنتنا لحظة ثم قلت له :
- أنت لم تعرف الألم .
- أول مرة في حياتي أرى إنساناً يموت . . . وأول مرة في حياتي أبكي . . .
- هذا شيء فظيع ! إن الحياة قاسية . . . أشد قسوة من الصخر !
- أنت لم تعرف الحياة بعد .
- نظر في عيني وهم بأن يقول شيئاً ولكنه لم يقل . . . وخيل إلى أني رأيت في عينيه نظرة غريبة . . .
- لعلها نظرة احتياج وضعف فيها طفولة وسداجة جعلتني أتحمس لعمل شيء من أجله . . .
- وقف ومد لي يده قائلاً :
- أشكرك مرة أخرى يا دكتورة .
- واستدار وسار إلى الباب ولكنه لم يخرج والتفت ناحيتي ولاحظت أنه يبذل مجهوداً كبيراً كي يقول شيئاً . . . وسمعته يقول :
- أريد أن أتحدث معك مرة أخرى ولكن . . .
- سكنت لحظة ثم قال وهو ينظر بعيداً عني :
- أعرف أن وقتك ضيق ولكن . . .
- ولم أرد . . . فقال متلعثماً وهو يتفادى النظر إلى . . .

— هل يمكننى أن أراك مرة أخرى ؟

وتأملت عينيه . . .

فى عينيه نظرة تشغلى . . . ولكن ملامحه لا تقنعنى . . . وهو لم ير الموت إلا موت أمه . . . ولم يعرف الألم والمرض . . .

أيمكن له أن يرضى هذا العقل العجوز المحرب ؟ . . . أيمكن له أن

يشير هذه الطفلة النهمة المطلقة بلا حدود ؟

ولكنه أول رجل تقع عليه عينائى . . .

وقأت : يمكنك أن ترائنى مرة أخرى . . .

• • •

جلست إلى جواره على صخرة كبيرة من صخور الهرم وامتدت نظرائى

إلى الأفق البعيد وأخذت أراقب قرص الشمس الأحمر وهو يتسلل من وراء

تسحب الرمادية الكثيفة وسمعته يقول :

— فيم تفكرين يا دكتورة ؟

— لماذا تنادينى يا دكتورة دائماً ؟

— ألا تحبين هذا اللقب ؟

— إنه يذكرنى بالأئين والمرض .

— إنه لقب ساحر . . . أحس وأنا أناديك به بالفخر . . . أنت

أول طبيبة أعرفها .

— حقاً ؟ !

— حين طلبتك فى التليفون لتتقلنى أى لم أتصور أن صوتك هو

صوت الطيبة وحين رأيتك تلخيلين حجرة أُمي لم أصدق أنك الدكتورة .
— لماذا ؟

— كنت أتصور أن الطيبة لا بد أن تكون قبيحة أو عجوزاً . . .
ترتدى على عينيها نظارة بيضاء سميكه . . . وظهرها مخني من كثرة القراءة
والإجها . . . لم أتصور أن الطيبة يمكن أن تكون امرأة جميلة .
— لماذا ؟

— من الصعب أن تجمع المرأة بين العقل والجمال .
— لماذا ؟
— لا أخرى .

— لأنهم يربون البنت الصغيرة منذ طفولتها على أنها جسم فقط
فتتشغل به طول حياتها ، ولا تعرف أن لها عقلاً أيضاً يجب أن تنميه .
— لماذا يفعلون ذلك ؟

— لأن الرجل الذي يمسك بمقاليد الحياة لا يريد من المرأة إلا أن
تكون حيواناً غيباً جميلاً يرقد بين قدميه .
— لماذا ؟

— الرجل لا يريد أن تكون المرأة نداءً أو شريكاً له ، ولكنه يريد لها
تابعاً له أو خادماً ، وضحكك وضحكك .
ورأيت يقترب مني ويقول :

— أنا لست هذا الرجل . . . أنا أريد من المرأة أن تكون شريكتي
وليست خادمتي . . . إني فخور بعقلك . . . لا يمكن لك أن تتصورى

مبلغ سعادتي حين أدخل عيادتك وأشهد بعيني ذلك العدد الكبير من النساء والرجال الذين يستظرون أن تمنحهم الصحة والشفاء. ويتلهفون على رأيك وخبرتك . . . هل يمكن لامرأة لها مثل عقلك أن تجلس في البيت لتطبخ ؟

هل يمكن لامرأة لها مثل علمك وذكاكك أن تنفق حياتها في إرضاع الأطفال مثل النساء الجاهلات بل مثل القطط والكلاب ؟ . . . لا . . . مستحيل ؟ إن هذا ظلم لك وللإنسانية جمعاء .

نفدت كلماته إلى أعماق الثائرة فهلتها ودخلت إلى قلبي الحائر فطمأنته . . . وأحسست أن الصراع الذي كان بيني وبين الرجل يذوب حتى آخر قطرة فيه . . .

وأسندت رأسي المرهق إلى صخور الهرم في راحة واسترخاء . . . لماذا لم تقل أي هذا الكلام ؟ لماذا لم يعترف المجتمع بهذا المعنى ؟
ها هو رجل يعترف به . . . ها هو رجل يعترف بعقل المرأة . . .
ها هو رجل يقول إن المرأة كالرجل لها جسم وفأ عقل . . . ها هو رجل يقول الكلام الذي نقوله أعماق منذ فتحت عيني على الحياة . . .

ونظرت إليه . . . أحاول أن أرى من أين تخرج هذه الكلمات الناضجة العادلة . . . من أعماقه أم من حنجرته ؟ ولم أستطع أن أرى شيئاً . . . المسافة بين أعماقه وحنجرته لم تكن موجودة . . . لعل لم أر له أعماقاً . . . أو لعل قرص الشمس قد سقط في تلك الهاوية السحيقة التي يسقط فيها كل ليلة فأخفت الظلال معالم الأشياء . . .

وأحسست يديه الباردتين فنظرت في وجهه. . . ابتسامته المادئة المستسلمة تثير أمومي. . . لكن نظراته الضعيفة المستجدية تخمد أنوثتي. . . لماذا؟ هل لأنه ضعيف. . . أضعف مني؟. . . أم لأنه لم يعرف الألم مثلما عرفت؟ أم لأن عينيه تفتقدان تلك القوة العميقة الخفية التي أريدها في الرجل؟. . . أم أنه لا تزال تجرى في دمائي أنوثة امرأة الغاب الفجة التي تعشق الرجل الذي يتصر عليها؟. . . ولكنه يرضى شيئاً في. . . لعل ضعفه يؤكد لي قوتي. . . لعل نظرة الاحتياج في عينيه ترضى عقلي الذي يصبر على التفوق. . .

• • •

قال لي وهو يبتسم :

— ماما كانت لما نفس هذه النظرة القوية. . . ولكن عيناها كانتا خضراوين .

خرجت كلمة ماما من تحت شاربه الكث شاذة منفرة جعلت ملاحظه تبدو كلامح طفل صغير على شفته العليا حشرة سوداء ميتة .

— وسمعت يقول : لماذا تنظرين إلى هكذا ؟

وقلت له : كنت تحب أمك ؟

اغرورت عيناه بالدموع لحظة ثم قال : جدا .

ولم تهزني دموعه . . . وقال : بعد موتها أحسست أن الدنيا فرغت .

ثم سكت لحظة وقال : ولكنني وجدتك. . . فشعرت أن الدنيا

امتألت من جديد .

- شىء غريب !
- ما هو الغريب ؟
- أن تفرغ الدنيا في نظرك بعد موت شخص .
- كانت أمى . . . وكنت أحبا حبا شديداً . . . كانت تفعل كل شىء من أجلى . . . وأنت ؟ أما كنت تحبين أمك ؟
- كنت أحبا . . . ولكنها لم تملأ حياتى قط .
- ربما كنت تحبين أباك أكثر ؟
- كنت أحبه كما أحب أمى .
- من هو إذن الذى ملأ حياتك ؟
- لم يكن شخصاً .
- ماذا كان ؟
- لا أدرى . . . لعلها لم تمتلئ أبداً . . . أو لعلى كنت أسعى إلى تحقيق شىء .

- ما هو هذا الشىء ؟
- لا أدرى . . . لعلى أريد أن أعمل عملاً عظيماً .
- علاج المرضى ؟
- لعله أكبر من ذلك . . .

• • •

- هل ترغبين في العيش معى إلى الأبد ؟
- سألتى وهو ينظر إلى نظرة طفل يتيم . . . فأتار أمومتى وإنسانيتى

ورغبى العنيفة فى البذل والعطاء وأحسست أن حاجته إلاّ تشلنى إليه
وتربطنى به . . . ونظرت إليه فى حنان . . .

فسألنى مرة أخرى : هل ترغبين فى الزواج منى ؟
وارتطمت كلمة الزواج برأسى فقهقرت أفكارى إلى الورا . . . حينما
كنت طفلة ماذا كانت كلمة الزواج تعنى لى ؟ رجل له بطن كبير فى
داخله مائدة طعام . . . وقد ارتبطت فى ذهنى رائحة المطبخ برائحة
الزوج . . . وكرهت اسم الزوج . . . وكرهت رائحة الأكل . . .

وسألته دون أن أدرى : هل تحب الأكل ؟

ونظر إلى مندهشاً وقال : الأكل ؟

— نعم .

— ما هذا السؤال الغريب الآن ؟

— الرجل يتزوج لياكل .

— من قال لك هذا ؟

— كل الناس .

— هذا خطأ .

— لماذا لم تفكر فى الزواج وأملك تعيش معك ؟

— لم تكن أى تصنع لى الأكل فقط . . . ولكنها كانت تمنحنى كل

ما أريد .

— أنت تتزوج ليمتحك أحد كل ما تريد ؟

وقال : لا . . . وكأنه يقول : نعم . . .

الرجل العجوز على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ينظر إليه نظرة احترام بالغة ويستمتع إليه . . . ولا يرانى ولا يسمعى كأن وجودى تلاشى من أمام عينيه . . . فى يده قلم وأمامه دفتر مسطر كبير .

— كم المقدم ياسيدى البك وكم المؤخر ؟
ما هذه الألفاظ الكثيرة التى تخرج من بين شفتيه اليابستين ؟
مقدم ؟ مؤخر ؟ ! هل هو الذى سيدفع لى ليتزوجنى ؟ هو الذى لا يملك ما يمنحنى إياه ؟

ولكن الرجل المغم لا يعرف من منا الذى يملك . . . إنه يراه رجلاً . . . ويرانى امرأة . . . والرجل فى نظره هو الذى يملك . . . ونظرت إلى الشيخ فى استعلاء وقلت له : اكتب لاشيء .
ونظر إلى الرجل فى استنكار شديد . . . كيف تتكلم امرأة فى حضرة الرجال !

وقال بلهجة العلماء : العقده يصبح باطلا .
وسألته : لماذا ؟

قال : الشرع أمرنا بهذا .
قلت : أنت لا تعرف الشرع .
وقفز الرجل من مقعده . . . وقفزت عمامته من فوق رأسه فأمسكها بكلتا يديه صائحاً : استغفر الله ! استغفر الله !

بلل الشيخ المعم أصابعه بطرف لسانه وغمس القلم في الحبر
وبسمل وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وشمر كفه الواسع ثم كتب
قسيمتي الزواج ومد لي يده بإحداهما وقال :

— وقعي بإمضائك هنا .

وقلت له في عناد : دعني أقرأها كلها أولاً .

ونظر إلى في غيظ وترك لي الورقة أقرأها . . .

ووقعت عيناى على كلمات غريبة تشبه الكلمات التي تكتب في عقود

إيجار الشقق والدكاكين وقطع الأرض الزراعية . . .

إنه في يوم كذا . . . بحضورى وعن يدي أنا فلان . . . مأذون

الجهة كذا . . . التابعة لمحكمة كذا . . . للأحوال الشخصية . . . تزوج

فلان . . . فلاتة . . . على صداق قدره كذا . . . الحال منه مبلغ . . . والمؤجل

منه مبلغ . . . زواجاً شرعياً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

بإيجاب وقبول شرعيين صادرين من الزوج المذكور وذلك بعد تعريفهما

المعرفة الشرعية والتحقق من خلو الطرفين من كل مانع شرعى ونظامى

والتحقق أيضاً أن الزوجة ليس لها معاش أو مرتب بالحكومة وليس لها

مال يزيد على ما تتي جنيه بشهادة كل من فلان . . . وفلان . . .

أمسكت الورقة بكلتا يدي لأمزقها لكنه أخذها مني ورأيت في عينيه

نظرة الضعف والاحتياج التي تجعلنى أخجل من التمرد عليه وأترفع عن

عصيانته وقال في هدوء :

— إنه إجراء شكلى ليس إلا . . .

ووقعت باسمي على العقد . .

. . .

وكأنما وقعت على شهادة وفائي . . .

اسمي الذي تفتحت أذني على سماعه وأربط في عقلي الراعي والباطن
بوجودي وكياني أصبح ملغيا . . ووضع اسمه على غلاقي . .

وجلست إلى جواره . . . أسمع الناس وهم ينادوني باسمي الجديد ،
فأنظر إليهم وإلى نفسي في دهشة شديدة كأنهم لا ينادون عليّ أنا . . .
كأنني مت . . . وتعمصت روحي امرأة أخرى تشبهني وتحمل اسماً
غريباً . . .

عالمى الخاص . . . حجرة نومي . . . لم تعد حجرتي وحدي . . .
وسريري . . . الذي لم يكن يشاركني فيه أحد . . أصبح هو يشاركني
فيه . . . كلما تقلبت أو تحركت ارتطمت يدي برأسه الخشن أو بذراعه
أو ساقه اللزجة . . . وصوت أنفاسه إلى جوارى يملأ الجو من حولي
بالعويل . . . لا شيء يربطني بهذا الرجل وهو مغمض العينين . . .
لا شيء أراه فيه إلا جثة هامدة كلاك الجثث التي رأيتهما في المشرحة . .
ولكن إذا ما فتح عينيه ونظر إلى بنطرتة الضعيفة المستجدية التي
تثير أمومي وتخذم أنوثتي أشعر أنه طفل صغير ولدته من صلب كياني
في مكان وفي زمان لا أدري عنهما شيئاً . .

. . .

— أنا الرجل .

- ما معنى أنك الرجل ؟
- إننى صاحب السلطة .
- أى سلطة ؟
- سلطة هذا البيت بكل ما فيه حتى أنت .
- بواخر التمرد تظهر عليه . . . شعوره بالضعف أمانى انقلب فى أعماقه
إلى رغبة فى السيطرة على . . .
- لا أريد أن تخرجى كل يوم .
- أنا لا أخرج للعبث . . . أنا أعمل .
- لا أريد أن تكشفنى على أجساد الرجال وتعريهم .
- نقطة الضعف التى يرتكز عليها الرجل فى محاولته السيطرة على المرأة . . .
حمايتها من الرجال . . . غيرة الذكر على أنثاه . . . يدعى أنه يخاف
عليها وهو يخاف على نفسه . . .
- يدعى أنه يحمىها ليستحوذ عليها ويغلق عليها أربعة جدران .
- لسنا بحاجة إلى إيراد العيادة .
- أنا لا أعمل من أجل المال . . . أنا أحب عملى .
- يجب أن تنفردى لزوجك وبيتك .
- ماذا تعنى ؟
- اغلقى العيادة .
- ظن أن عملى هو الذى يمنحنى القوة التى تحول بينه وبين السيطرة
على . . . ظن أن تلك الجنيات القليلة أو الكثيرة التى أكسبها كل شهر

هى التى تجعلنى شاحنة . . لم يعرف أن قوقى ليست لآنى أعمل . .
وأن شموخى ليس لأن لى إيراداً خاصاً . . . ولكن لآنى لا أشعر نحوه
باحتياج نفسى كذلك الذى يشعر به نحوى . . . لأننى لم أشعر باحتياج
لأى أو أبى أو أى أحد . . . لأننى لا أنتمى إلى أحد . . . وهو كان
يتنى إلى أمه ثم أصبح يتنى إلى . . .

ولكنه يرى نفسه رجلاً . . . فيه ملامح الرجل . . . صوته غليظ . . .
وشاربه كثيف . . . الرجال يعملون حسابه . . . والنساء يختلسن النظر إلى
شاربه . . . والعيال فى الشوارع والحوارى لا يستطيعون التعليق عليه
بالألفاظ النابية أو فذفه بالحجارة . . .

• • •

- اغلقى العيادة .
- والمرضى ؟ والإنسانية التى ستظل ؟
- هناك أطباء غيرك .
- ومستقبل فى الطب ؟ وعلمى الذى دفعت فيه نصف حياتى ؟
- حياتك هى أنا .
- والكلام الذى قلته لى ؟
- لم أكن أعرف .

فتحت عيني ونظرت إليه . . . عيناه باهتان ضحلان . . . وكفه
قاسية غليظة ، أغظت مما كنت أتصور . . . وأصابعه غيبة قصيرة ،
أقصر مما كانت أتخيل . . . من هذا الرجل الغريب الذى إلى جوارى ؟

هذه الكتلة البشرية التي اسمها زوجي ؟

واقترب مني وأمسك يدي . . . وهمس في أذني . . . وقرب وجهه
من وجهي . . . حاولت أن أنسى نظرة عينيه المتغطسة . . . حاولت أن
أنسى كلماته المتناقضة . . . حاولت أن أكذب أذني . . . حاولت
أن أكذب عيني . . . حاولت . . . حاولت . . . ولكن هيهات . . .
ذاكرتي صاحبة واعية تذكر كل كلمة وكل حرف . . . وعقلي يقظ . . .
يقظ . . . يشلني إلى صور من واقعه الكئيب . . . وعيناي مفتوحتان تريان
أسنانه وأذنيه . . . وكانت أذناه كبيرتين مفلطحتين كأذني الأرنب .

وابتعدت عنه . . . لكنه حوطني بلراعيه اللزجين هامساً في أذني
بصوت مبجوح كئيب . . . وأبعدته عني في ضيق وقلت له في غضب :
- لماذا كذبت عليّ ؟

- كنت أريد أن أمتلكك .

- مستحيل ! أنا لست قطعة أرض !

- ييدي أنا الأمر ! أنا الزوج !

ضاعت من عينيه نظرة الضعف والاحتياج فانقطع الخيط الذي
كان يربطني به . . . وبرزت من قاع عينيه الضحلتين نظرة قاسية
متغطسة . . . ليست هي نظرة الرجل القوي . . . ولكنها نظرة الرجل
الضعيف حين يشعر بعقدة النقص . . . عقدة الرجل الذي يرى نفسه الطرف
الآفوق بين الناس في الشارع ثم يشعر أنه الطرف الأضعف بين جيران بيته .

• • •

جلست في عيادتي ووضعت رأسي بين يدي واعترفت ببني وبين
 نفسي بالخطأ... نعم لقد أخطأت... صدقت كلام الرجل في
 الظلام دون أن أرى أعماقه... غرني نظرة الضعف والاحتياج ولم أعرف
 أن الإنسان الضعيف يحتاج تحت جلده عدداً من العقد والصدمات الدينية التي
 يترفع عنها الإنسان القوي... نعم لقد أخطأت... عصيت قلبي وعقلي
 وطاوعت الرجل ووقعت على عقد الزواج الذي يشبه عقود الشق والدكاكين...
 ألم أجعله بهذا العقد الغريب صاحب السلطة عليّ؟

ألم يجعله هذا العقد زوجي؟

هذه الكلمة التي لم أنطقها أبداً! زوجي! ماذا تعني لي كلمة زوجي؟
 هذا الجسد السميك الذي يحتل نصف السرير... هذا الفم
 الواسع الذي يأكل ويأكل... هاتان القدمان المفلطحتان اللتان تلوانان
 الجوارب والملاءات... هذا الأنف الغليظ الذي يؤرقني طول الليل
 بالشخير والصفير...

ولكن ماذا أفعل الآن؟ هل أحمل على كاهلي وزر خطئي وأعيش
 معه إلى الأبد...

ولكن كيف أعيش معه؟ كيف أتحدث إليه؟ كيف أنظر في
 عينيه؟ كيف أترك له شفتي؟ كيف أتمن روحى وجسدى معه؟
 لا... لا... إن الخطأ الذي وقعت فيه لا يساوى كل هذا
 العقاب... لا يساويه!

كل الناس تخطئ... الحياة تشتمل على الخطأ والصواب...

بل إننا لا نعرف الصواب إلا من خلال الخطأ . . . ليس في الخطأ ضعف أو غباء ولكن الاستمرار في الخطأ هو الضعف وهو الغباء . . .

* * *

الناس يفتحون أفواههم في دهشة واحتجاج . . .

— كيف تركت زوجها ؟ ولماذا ؟

ما أجرأهم !

هؤلاء الناس الذين يسلمون لى أجسادهم وأرواحهم فأنقلدها من الهلاك والموت . . . كيف لهم أن يحتجوا على شيء خاص بى ؟ بل كيف لهم أن يبدوا لى الرأى ؟ أنا التى أشير عليهم بما يأكلون وبما يشربون . . . وأشرح لهم كيف يتنفسون وكيف ينامون وكيف يعيشون وكيف يتكاثرون . . . هل نسوا ؟ أم أنهم يظنون أننى حين أخلع سماعتى ومعطى الأبيض أخلع معهما عقلى وذكائى وشخصيتى ؟

ما أجهلهم !

لقد ضيعت أى طفولتى . . . والنهم العلم صباى وفجر شبابى . . . ولم يبق لى من شبابى إلا سنوات تعد على الأصابع . . . لن أضيعها ! ولن أدع أحداً يضيعها .

عالمى الصغير الذى كنت أبنيه من الكرامى والعرائس وأنا طفلة صغيرة
أصبح حقيقة واقعة . . . فى جيبى مفتاحه السحرى العجيب . . . أدخل
متى شئت وأخرج متى شئت بلا إذن من أحد . . . أنام فى سرير
وحدى بلا زوج . . . أتقلب كما أشاء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى
اليمين . . . وأتمرغ كما يحلو لى . . .

أجلس على مكبى لأكتب أو أقرأ . . . أو لأتأمل وأفكر . . . أو
لا أتأمل ولا أفكر ولا أفعل شيئاً على الإطلاق . . .

أنا حرة . . . حرة تماماً فى عالمى هذا الصغير . . . أغلق على بابى
وأخلع عنى حياتى المزيفة مع الناس وأخلع معها حداثى وأتجرد من
ملابسى وأتجول فى بيتى كما أشاء . . .

أنا وحدى . . . وحدى تماماً . . . فى بيتى . . . لا أسمع أصواتاً
ولا أنفاساً . . . ولا أرى وجوهاً ولا أجساداً . . .

لأول مرة فى حياتى يتزاح عن قلبي عبء ثقيل . . . عبء العيش
فى بيت يشاركنى فيه أحد . . .

• • •

فتحت عيني فى منتصف الليل على دقائق قلبي تدب فى صدرى
ديب جيش مفلول . . . وأنفاسى تصر تحت ضلوعى صرير ساقية
خربة . . . وعينائى مفتوحتان ولا تريان إلا سواداً . . . وأذنائى تطنان

في سكون رهيب ميت... وشعرت بالخوف... كأنما خفت أن يتوقف قلبي عن الדיيب... وتختنق أنفاسي مع الصرير... ويطنني الظلام نور عيني... ويضع سمعي في الطنين...

وحملت في الظلام أمتحن بصرى... وأرهفت أذني في السكون أختبر سمعي... ورأيت كتلة السواد الكبيرة تتمزق إلى كتل صغيرة... لما رؤوس ولما قرون ولما أذنان... ودبت الأصوات في السكون الميت... بعضها همس... وبعضها حفيف... وبعضها عويل...

وأخفيت رأسي تحت الغطاء لأسد عيني وأذني... وتلاشت الأشباح والأصوات... وهذا الدييب في صدرى وضاع الصرير... وسرى دفء الفراش في أطرافى وأوصالى فتناهت في استرخاء ومددت ذراعى أتجسس النوم... لكن النوم لم يكن هناك... وعانقت ذراعى شيئاً آخر... له عينان تشبهان عيني أبى ولكنه ليس أبى... وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى، ولكنه ليس ابن عمى... ترى من هو؟ من؟

وبدا الطيف الذى أرق ليالى صباى يزورنى... والليل عاد طويلاً... والصرير أصبح واسعاً... والوحدة لم تعد ساحرة...

أين أجده؟

كيف أعثر عليه في هذا العالم الواسع المزدحم؟

هذا الطيف الذى تعرفه أعماقى وتعرفه... هذا الرجل الذى يعيش

فى خيالى ويتربع

أعرف نظرة عينيه . . . وأعرف بيرة صوته . . . وأعرف شكل أصابعه . . . وأعرف دفء أنفاسه . . . وأعرف أحمق عقله وقابه . . . أعرف . . . أعرف . . . أعرف . . . كيف أعرف ؟ لا أدري ! ولكنى أعرف .

ترى هل له وجود فى الحياة أم ليس له وجود على الإطلاق ؟

ترى هل سألقاه يوماً أم سأظل أنتظره إلى الأبد ؟

وهذا العملاق الراقص فى أعماق ؟ ماذا أفعل به ؟ هل أتركه يعيش فى حرمان إلى الأبد ؟ أم أحاول أن أرضيه ؟ ولكن كيف أرضيه فهو يفضل أن يعيش فى حرمان كامل دائم على أن يرضى إرضاء مزيفاً أو ناقصاً . . . نعم . . . أريد رجلاً كاملاً كما فى خيالى . . . وأريد حباً كاملاً كما فى أعماقى ولن أتنازل عن شيء مما أريد مهما طال بى الحرمان . . . الكل أو لا شيء . . . هذا هو مبدئى . . . لن أقبل أنصاف الأشياء أبداً . . .

قررت أن أبحث عنه فى كل مكان . . . فى القصور وفى الكهوف . . . فى الملاهى وفى الأدب . . . فى معامل العلم وفى معابد الفن . . . فى الأضواء الساطعة وفى الظلام الدامس . . . فى القمم الشاهقة وفى الحفر المنخفضة المغورة . . . فى المدن العامرة وفى الغابات المهجورة الموحشة . . .

لماذا ينظر الناس إلىّ فى دهشة ؟ ما الذى يدهشهم هؤلاء الناس ؟

ألم يكفهم ما ضاع من عمرى ؟ وماذا هم يريدون ؟ أريدون منى أن
أضع يدي على خدي وأنتظر في عقر دارى حتى يأتى أى رجل من أى
شارع ويشترينى كما تشتري البقرة ؟

أليس من حقى الطبيعى فى الحياة أن أختار رجلى ؟
وكيف أختاره ؟

من بين النساء ؟ أم من بين صور الكتب ؟ أم أختار الرجل الواحد
الذى يختارنى ؟

أليس من الضرورى أن أبحث عنه بين الرجال ؟ وكيف أبحث عنه
إذا لم أنقل هنا وهناك أنظر فى وجوه الرجال وعيونهم . . . وأسمع أصواتهم
وأنفاسهم . . . وألمس أصابعهم وشواربهم . . . وأكشف عن أعماق
قلوبهم وعقولهم ؟ هل يمكن لى أن أعرف رجلى فى الظلام أو من وراء
الشيش أو من على بعد كيلومتر ؟

أليس من الضرورى أن أراه فى النور ؟ وأختبره وأعرفه ؟
أليس من الضرورى أن تسبق التجربة المعرفة ؟ أم أنهم يريدون منى
أن أقع فى الخطأ مرة أخرى ؟

كان لا مفر لى من أن أخوض التجربة . . . أخطر تجربة فى حياة
المرأة . . . تجربة اختيار الرجل . . . تجربة البحث عن الحب . . .

* * *

لم أكن أرى منه إلا عينيه . . . كانت ملامح وجهه تختفى دائماً
تحت قناع الوقاية الأبيض . . . وأصابع يديه تختفى تحت القفاز الجلدى

المعقم . . . وملاح جسمه تختفي تحت رداء العمليات الواسع . . .
 وقلماه تختفيان في حذاء كبير له رقبة طويلة . . . وأنفاسه تختفي في
 أنفاس جهاز التخدير الذي يملأ الحجرة برائحة الأثير . . .
 رأيته ينظر إلى خلسة . . . ولم يكن معنا في الحجرة إلا رجل واحد
 فاقد الوعي من أثر المخدر يرقد على منضلة العمليات مغمض العينين
 وقد ظهرت أمعاؤه من فتحة كبيرة في بطنه . . .
 لماذا يختلس النظرات ؟ ممن يخاف ؟ من هذا الرجل الغائب عن الوعي
 أم مني أم من نفسه ؟ أم أنه تعود على أن يخاف . . . وعلى أن يختلس
 النظر ؟

وسمعه يقول : لماذا أنت سارحة ؟ فيم تفكرين ؟

— في الرجل .

— أي رجل .

— هذا الرجل الذي فتحنا بطنه .

وضحك . . . ولم أر شفثيه أو أسنانه من تحت القناع الأبيض ،
 ولكني سمعت ضحكته . . . ضحكة قصيرة ثم عن السخرية . . .

وسكت . . . وأخذ يعبث بأصابعه في بطن الرجل باحثاً عن المصران
 الغليظ . . . وقال بعد لحظة وهو يمسك المصران بالملقط :

— لا فائدة من بتره . . . لقد أكله السرطان وانتشر في الغشاء
 البريتوني . . . ونظرت إلى وجه الرجل النائم وأحسست بسكين حاد يمزق
 صدرى فأطرقت إلى الأرض لا بتلع دموعي في صمت . . .

وسمعتة يصحك ويقول : أُنم تتعدى بعد على هذه الآلام .
 - أنا لا أتعد أبداً على هذه الآلام .
 ونظر إلى آسكت . . . وبدأنا نغلق بطن المريض في صمت . . .
 وفجأة سمعتة يقول :
 - هل تعرفين فيم أفكر ؟
 - لا .
 - أفكر فيك .
 ضغط على حروف الكلمات وثبت عينيه فلم أطرق إلى الأرض
 ودققت النظر في عينيه . .

. . .

نظر إلى نظرة طويلة حاول أن يودع فيها كل معاني الرغبة للمرأة . . .
 وقال : المرأة بعد أن تزوج تصبح أكثر حرية من الفتاة العذراء .
 ونظرت إليه في غضب قاتلة :
 - إن حريتي لا أستعدها من خلايا ضعيفة من خلايا جسدي . . .
 وإن قيودي لا تنبع من خوف على عذرية واهية تمزقها خبطة عشواء
 ، يوصلها غرز العلم . . . قيودي أضعها بنفسى حين أريد القيود . . .
 وحريتي أمارسها بإرادتي كما أفهم الحرية .
 ونظر إلى نظرة خبيثة وقال :
 - ولماذا إذن تخافين ؟
 - من أى شيء ؟

— منى ؟

— أنت ؟

ما الذى يريد منى ؟ أو ما الذى أريده منه ؟ لا أدري . . . ولكنى
يد أن أعرف شيئاً . . . عن الرجل . . . أو عن نفسى . . . شيئاً
زال غامضاً . . .

• • •

حملتنى قدامان ثابتان إلى باب بيته . . . وضغطت يدي الواقعة على
فرس . وابتسم ابتسامة عريضة ثم عن الرضى والانتصار وقال :
— كنت أظن أنك لن تأتى .

— لماذا ؟

— كنت أظن أنك لا تثقين فى بعد .

— أنا لا أثق فىك بعد

وجلس . . . فجاء وجلس إلى جوارى حتى كادت ساقه تلمس ساقى
ممت وجلست أمامه . . .

قال وعلى وجهه ابتسامة مأكرة : لماذا لا تجلسين إلى جوارى ؟

قلت وأنا أنظر مباشرة إلى عينيه : أفصل أن أجلس أمامك .

— لماذا ؟

— لأرى عينيك .

وسكت وضبطت نظراته وهى تهرب بعيداً عن عيني . . . وفكر
نظرة ثم نهض ودخل إلى إحدى الغرف وعاد ومعه زجاجة طويلة وأفرغ
كأساً . . .

قلت له : ما هذا ؟

قال : إن عقلك حاد كالسيف !

ونظر إلى ساقى فى شراهة وقال : أريد أن أتخلص من عقلك هذا !

عقلى حاد كالسيف ؟ أريد أن يتخلص من عقلى ؟ لماذا ؟ !

هل هى معركة ؟ ما الذى يريده هذا الرجل ؟

ورأيته يتبسم ابتسامة غريبة . . . ودققت النظر إلى ابتسامته فشعرت

أنه يستعد لمعركة يريد أن يكون هو الفائز فيها . . .

معركة للرجل والمرأة . . . تلك المعركة المزيفة العجيبة . . .

تقف المرأة فيها أمام الرجل وحدها . . . ويقف الرجل فيها أمام

المرأة ومن ورائه مناريس من التقاليد والقوانين والأديان . . . وسلود من

التاريخ والأحقاب والأجيال . . . وصفوف من الرجال والنساء والأطفال . . .

يحملون ألسته ممدودة حادة كسنان السيوف . . . ويصوبون عيوناً مفتوحة

كفوهات البنادق . . . ويفتحون أفواهاً واسعة كالمدافع الرشاشة . . .

يقف الرجل أمام المرأة مستنداً بظهره إلى العالم . . . يقبض بيده على

صولجان الحياة . . . يملك الماضى والحاضر والمستقبل . . . يملك

الشرف والكرامة والأخلاق وأوسمة معاركه مع النساء . . . يملك الدين

والدنيا . . . بل يملك تلك النطفة الصغيرة التى قد تثبت فى أحشاء المرأة

عقب العراك . . . يعترف بها أو لا يعترف . . . يمنحها اسمه وشرفه

أو لا يمنح . . . يحكم عليها بالحياة أو يحكم عليها بالإعدام .

وتقف المرأة أمام الرجل وقد سلبها العالم حريتها وشرفها واسمها وكرامتها

وطبيعتها وإرادتها . . . سلبها الدين والدنيا . . . بل سلبها تلك الثمرة الصغيرة
التي تصنعها في أعماقها بدمائها وخلاياها وذرات عقلها وقلبها . . .
ورأيته يتسم مرة أخرى . . .

لماذا تبتسم هكذا يا رجل ؟ هل يمكن أن تسمى هذه معركة ؟
واقرب مني ولفحت أنفاسه الساخنة وجهي وابتعدت - فجاء ورأى
زاحفاً على قدميه ويديه ، فوققت وابتعدت . . .

ما هذا ؟ لماذا ينهار الرجل هكذا أمام رغبته ؟ لماذا تتلاشى إرادته
بمجرد أن يغلظ عليه باب مع امرأة فيرتد حيواناً أعجم يمشي على أربع ؟
أين قوته ؟ أين عضلاته ؟ أين سيطرته وزعامته ؟

ألا ما أضعف الرجل ! لماذا كانت أمي تصنع منه إلماً ؟
ونظرت إليه . . . إلى عينيه وإلى أصابع يديه وقدميه . . . سلطت
عليه كشافى الكهربي ودققت النظر إلى أعماق عقله وقلبه فראيت أعماقاً
خاوية جائعة ورأيت عقلاً هزيباً . . . وقلباً مزيفاً . . .
وعرفت لماذا أراد أن يتخلص من عقلي . . . أحسست أنه لص يريد
أن يخلص شيئاً من وراء عقلي . . .

ونظرت إليه في ترفع وإشفاق . . . أشفقت عليه فانسجبت من
المعركة ترفعاً منى من منازلة شخص أضعف منى . . . أشفقت عليه فانسجبت من
أحسست أنني أقوى منه . . . بالرغم مما يمر ورائى عيني تاريخ . . .

وبالرغم مما يحيط نفسه به من سدود ، وبالرغم مما يدعم نفسه من أسلحة . . .
شعرت أنني لست بحاجة إلى منادى بحدود أو أسلحة ، فإن قوى فى

أعماقى . . فى داقى .

لو أغلقت على أربعة جدران عالية مع رجل لا أريد أن أعطيه
لمسة واحدة من يدي فلن أعطيه . . . وإذا أردت أن أعطي الرجل نفسى
مسوف أعطيها له أمام العالم دون تلصص أو اختلاس . . .
إن إرادتى هى التى تحكمنى وليس المكان أو الزمان أو الناس . . .
ورأيت به يقترب منى مرة أخرى ووضع يده على يدي فشعرت ببرودة
الحليد ترحف على روحي .

لا تسيء يحدى أيها الرجل فأبعد يدك الغريبة عني . . . إن قلبي
يقنع عقلى . وعقلي يقنع جسدى . ولا سبيل لإقناع أحدهم إلا عن طريق
إقناع الآخر
وأمسكت حقيبتى ووقفت .

يسألنى فى دهشة : هل تذهين ؟

قلت : نعم

قال فى دهشة شديدة : لماذا ؟

ماذا أقول له ؟ لماذا لا يفهم ؟ هل يمكن له أن يصدق ؟
هل يمكن لرجل أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن تنفذ إلى داخله
وتكتشف أعماقه ؟ هل يمكن له أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن
نخضع جسدها لقلبي وعقلها ؟

أن ينظر فى عينيها ولا ترمش ؟ أن يمسك يدها ولا تهتز ؟ أن يغلظ
عابها معه أربعة جدران فلا تعطيه شيئاً وتتركه وتمضى قائلة : لا . . . لست

الرجل الذى أريد ؟

هل يمكن لرجل أن يدرك أن هناك امرأة يمكنه أن يتحصه
ويتخبره . ثم يسقط فى الاختبار ؟

لا . . . لقد تعود الرجل على أنه هو وحده الذى يفحص المرأة
ويتخبرها . . . هو وحده الذى له حق الاختبار والاختيار .

أما المرأة فليس لها إلا أن تقبل الرجل الذى يختارها . . . رجل واحد
أوحد . . . ويعيش حياته كلها يقنع نفسه أنه هو هذا الواحد الأوحد . . .
أليست المرأة مثل الرجل أيها الطبيب العبرى القديس ؟ هل نسيت العلم ؟
أم أن عقلك منفصل عن جسدك ؟

ولكن الغرور يصنع من الرجل مخلوقاً غيباً .

• • •

المجتمع يرشقني بظلمات حادة كالخناجر . . . ويمد في وجهي السنة
سليطة حامية مثل كراييج الخيول . . .

كيف تعيش امرأة وحدها بلا رجل ؟ لماذا تخرج ؟ لماذا تلخل ؟
لماذا تبسم ؟ لماذا تنفس ؟ لماذا تستنشق الهواء ؟ لماذا تأمل القمر ؟ لماذا
نرفع رأسها ؟ لماذا تفتح عينيها ؟ لماذا تدب على الأرض في تشامخ وثقة ؟
ألا تخجل ؟ ألا تحتمى في رجل ؟

هاجمني الأهل والأقارب . . . وتبارى في قلبي الأصدقاء والأحباء
. . . ووقفت في مهب الرياح أفكر . . .

منذ طفولتي وأنا أخوض سلسلة من المعارك لا تنهى . . . وهأنلى

الآن إزاء معركة جديدة . . معركة مع المجتمع . . المجتمع الكبير . . .
 ملايين الناس ومن أمامهم ومن خلفهم ملايين الملايين . . .
 لماذا لا تسير الأمور في الحياة كما ينبغي لها أن تسير ؟ لماذا لا يكون
 هناك إدراك وفهم للحقيقة وعدالة ؟ لماذا لا تعترف الأمهات بأن البنت
 كالولد ؟ لماذا لا يعترف الرجل بأن المرأة ند وشريك ؟ لماذا لا يعترف
 المجتمع بحق المرأة في ممارسة الحياة الطبيعية كمقل وجسم ؟
 لماذا يضيعون عمرى في هذه المعارك ؟

وضعت رأسى بين يدى وجلست أفكر . . هل أخوض المعركة
 مع المجتمع الكبير أم أخضع له وأنساق وراءه ؟ وأخنى له رأسى وأغلق
 على نفسى جدران بيتى وأحتفى في رجل ككل النساء ؟
 لا . . . مستحيل ! لن أخضع للمجتمع . . ولن أنساق وراءه . . .
 ولن أخنى له رأسى . . ولن أحتفى في رجل !
 سأخوض المعركة وسأحتفى في نفسى . . في ذاتى . . في قوتى . . .
 في علمى . . في نجاحى . . .

• • •

تركت كل شيء . . . تركت الأهل والأصدقاء . . . تركت الرجال
 والنساء . . . تركت الطعام والشراب . . . تركت النوم والأحلام . . .
 تركت القمر والنجوم . . . تركت الهواء والماء . . . وارتديت معطفاً الأبيض
 وعلقت الساعة في رقبتي ووقفت في عيادتي . . .

قررت أن أناضل . . . أن أكافح . . . أن أعرق وأغرق في عرق . . .
قررت أن أقف أمام المجتمع على قدمين من حديد . . .

• • •

دخلت على عيادتي وجسمها الصغير يرتعد من الملح وملاحها البريئة
الطفلة تلهث وتتلفت خلفها في فرع . . . ونظراتها الحائرة المستغيثة
تطلع إلى عيني في استجداء واسترحام .

سألها : ماذا بك يا طفلي الصغيرة ؟

فارتجفت كالمحمومة وأجهشت بالبكاء . . . واستعطت أن ألنقط
من بين شفتيها المرتجفتين بضع كلمات ممزقة مبتورة .

خدعني . . . ذئب . . . الصعيد . . . سيقتلونني . . . ليس لي
أحد . . . أنقلدني . . . يا دكتورة !

لم يكن معها منديل فأعطيتها منديلي . . . وانتظرتها حتى أفرغت كل مافي
قلبي الصغير من دموع وخففت عينيها وتشبثت بنظرها الفزعة بشفتي
تتلهف على تلك الكلمة الصغيرة التي سألتني بها فأمنحها الحياة أو أحكم
عليها بالموت . . .

ونظرت إليها . . . كانت طفلة تبلغ الرابعة أو الخامسة عشر
لا تزيد . . . وكانت بريئة طاهرة ضعيفة بلا معين ولا نصير . . . ولم يكن
لي مجال للاختيار .

كيف يمكن لي أن أتخلى عنها وليس لها أحد سوى ؟ كيف يمكن لي
أن أحكم عليها بالإعدام وأنا أومن ببراءتها واستحقاقها الحياة . . . كيف

أترك رقبتي تحت سكين أيها وأنا أعلم أن أباه وأمه وأخاه وعمها هم أصحاب الخطيئة . . . كيف أعاقبها وحدها وأنا أعلم أن المجتمع كله مشترك في الجريمة . . . كيف أعجب لوقوعها في الخطأ وأنا أعلم أن كل الناس يخطئون . . . كيف لا أحميها وهي الضحية ، والمجتمع يحمي المجرم الحقيقي . . . كيف أستنكر سقوطها في الخطأ وأنا نفسي سقطت في الخطأ . . . أنا التي عشت ضعف ما عاشت ورأيت أضعاف ما رأيت وتعلمت أضعاف ما تعلمت . . . كيف لا أبرئها وقد برأت نفسي من قبل ؟

لا بد لي أن أقتل الطفلة المسكينة ! أقتلها من يرثي التقاليد والقوانين وأنشئها من بين أنياب الوحوش والأفاعي والجرذان والصراصير . . .

سأقتلها . . . وليصلبوني إذا عنّ لهم أن يصلبوا . . . وليرجموني بالحجارة إذا شاء لهم أن يرحموا . . . وليسوقوني إلى المشنقة إذا لاح لهم أن يسوقوا . . . ولكني سأقبل مصيري وألقى حتفي وأنا راضية النفس مستريحة الضمير .

كل مآسى المجتمع دخلت عيادتي . . . كل نتائج التخني والحداع استلقت أمامي على منضدة الكشف . . . الحقائق المرة التي ينكرها الناس جاءت وتعددت تحت يدي على منضدة العمليات . . . وأشفت على الناس . . .

أليس هذا الرجل الذى يذبح أخته المخطئة هو نفسه الذى يخطيء
مع أخوات الرجال ؟

أليس هذا الذئب الذى يخدع الطفلة البريئة هو نفسه الأب الذى
يحبس ابنته ويقيدها ؟

أليس هذا الرجل الذى يخون زوجته هو نفسه الزوج الذى يقتل
زوجته دفاعاً عن شرفه ؟

أليست هذه الزوجة التى تخون زوجها هى نفسها المرأة التى تطلق
الشائعات على النساء ؟

أليس هذا المجتمع الذى يذيع أغاني الحب والغرام هو نفسه المجتمع
لذى ينصب المشقة لكل من وقع فى الحب والغرام ؟

أشفقت على الناس . . . كل الناس . . . فهم الضحايا وهم أيضاً
بلحناة .

• • •

امتلاأت عيادنى بالرجال والنساء والأطفال . . . وامتلاأت خزينتى
الذهب والمال . . . وأصبح اسمى لامعاً كأسماء النجوم . . . وأصبح
ابى ينشر على الناس كأنه دستور . . .
ظهر لى من الأغراب أقارب . . . وتحول الأعداء إلى أصدقاء
أحباء . . . وتكاثر حول الرجال كالذباب . . . واقلب الهجوم إلى
أييدٍ ودفاع . . . وامتلاأ درج مكنتى بالتوصيات والرجوات والاستعطافات .
وجلس على قمى العالية أنظر تحت قدمى إلى المجتمع . . .

وابتسمت له في إشفاق . . . المجتمع ! ذلك المارد الجبار الذي يقبض
على أعناق النساء ويلقي بهن في المطابخ أو المجازر أو القبور أو الوحل !
ها هو المجتمع ملقى في درج مكبي ضعيفاً منافقاً مسترحماً ! ألا ما أصغر
المجتمع الكبير !

جلست إلى مكبي بعد أن خرج آخر مريض وذهب التمورجي إلى
بيته . . .

جلست وحدى ونظرت إلى الساعة . . . كانت لا تزال التاسعة
مساء . . . أول الليل . . . والحياة على أشدها في الطريق . . .
ووقفت وأخذت أتمشي في الحجرة حائرة . . . ووصلت إلى النافذة
فلفحت وجهي نسمة الليل الدافئة الحاملة . . .

ونظرت إلى الشارع فرأيت الناس يسرون متلاصقين يتكلمون
ويعيسون ويضحكون . . . ونظرت إلى نفسي فوجدت أنني أطل عليهم
من فوق . . . من مكان عال حقاً . . . ولكن بعيد . . .

وأحسست بيرودة شديدة . . . كأنني أجلس على قمة عالية يكسوها
الجليد . . . أنظر فوق رأسي . فلا أرى إلا السحب والسماء . . . وأنظر
تحت قدمي فأرى مسافة طويلة تبعدني عن الوديان السهلة المنبسطة . . .
عن السهول المنخفضة الدافئة بأنفاس البشر وأجسادهم . . . وأرى الناس وهم
يلوحون لي بأيديهم من بعيد ولكن أحداً لا يصل إلي . . . ويعزفون لي
الألحان ، ولكن الصوت لا يصل إلى أذني . . . ويلقون لي بالورود ولكن
العبير يضيع في الهواء . . .

ووضعت رأسي على سور النافذة . . .
 ما أبرد الوحدة ! ما أقسى السكون ! ماذا أفعل ؟ هل أقفز من
 فوق قمّي ؟ ولكن عنق سيترك في الأرض دكاً . . .
 هل أعود أدراجي ؟ ولكن عمري سيتقضى ولن أبلغ ما أريد . . .
 انتهت المعارك وأن لي أن أجلس بلا حراك . . .

آه . . . ما أفضح الفراغ !
 لماذا قفزت فوق سلم حياتي ؟ لماذا لم أرشف كأس حياتي رشفة
 رشفة ؟ لماذا لم أقضم عمري قضمة قضمة ؟ لماذا جريت شوطي قفزاً ولمأ ؟
 لماذا تركت مكاني في الصف وقفزت فوق الصفوف ؟
 إن صفوف الناس تزحف في الطريق . . . تزحف كالسلاحفة ،
 ولكنها ستصل يوماً . . . وإن الحياة تسير إلى الإمام . . . تسير ببطء
 ولكنها ستبلغ حتماً ما تريد . . . لقد انقضت ملايين السنين حتى
 أصبحت الهبولة هواء . . . وحتى أصبح الهواء ماء وحتى أصبح الماء
 جماًداً . . . وانقضت ملايين أخرى حتى أصبح الجمامد أمياً تتحرك
 وحتى أصبح للأميا زوائد حية . . . وانقضت ملايين أخرى لتصبح
 الزوائد زعانف ثم لتصبح الزعانف أجنحة ثم لتصبح الأجنحة أذرعاً
 وذيلاً . . . وانقضت ملايين أخرى ليصبح للأذرع أصابع ولينقرض
 الدليل ويقف القرد على قدمين اثنتين . . .

لماذا حزنت في طفولتي لأنني لا أطير في الجو كالحمامة ؟ لماذا ضقت
 بتلك الأيام الدامية التي تلوث النساء كل ثلاثين يوماً ؟ لماذا تمردت على

التاريخ والقوانين والتقاليد ؟

لماذا ثرت لأن العلم لم يكشف سر البروتريلازم الحى ؟

سوف تنقضى السنون ويغير الزمن التاريخ والقوانين والتقاليد . . .

سوف تنقضى السنون وتكشف الحياة طريقة نظيفة جميلة تنضج

بها البنات الصغار . . سوف تنقضى السنون ويخف جسم الإنسان

فيطير . . . سوف تنقضى السنون ويهتدى العلم إلى سر البروتريلازم

الحى . . . إن ركب الزمن يسير . . . وإن الحياة تعرّكل يوم على شيء

جديد . لماذا استبطأت الزمن فهشت تروسه أوصال عمرى ؟

لماذا تعجلت الحياة فلفظتنى عجلاتها وقذفت بى إلى فوق . . .

فوق . . . إلى قمة عالية حقاً ولكن الوحدة تغلفها ويكسوها الجليد . . .

آه . . .

ما أفسى الصمت ؟ وما أرق أصوات البشر ولو كانت ضجيجاً . . .

ما أبرد الوحدة ؟ وما أدفاً أنفاس الناس ولو كانت مريضة . .

ما أقبح السكون ؟ وما أجمل الحركة ولو كانت معارك . . .

ما أفظع الفراغ ؟ وما أحلى التفكير والانشغال حتى بالفشل . . .

* * *

حل الفراغ بأعماق فوجد العملاق مكاناً ليتحرك . . . تلاشى الزحام

داخل نفسى ففرد العملاق ذراعيه وساقيه وبدأ يتأهب ويتمطى . . .

ماذا تريد ؟ تمردت على كل شيء ورفضت حياة النساء . . . سمعت

وراء الحقيقة فقادتك الحقيقة إلى أن تغلق على نفسك جدران نفسك . . .

والرجال . . . قلبت فيهم وفتشت وبعثرت ثم مصمصت شفتيك
في ازدياء . . .

ماذا تريد ؟ رجلا يعيش في خيالك ولا يعيش على الأرض ؟ . . .
رجلا يتكلم ويتنفس ويفكر وليس له جسد الرجال ؟ أم يمكن لك أن
تنسى ؟ هذه الأجساد الملقاة على مناضد التشريح ؟ هذا الشخير الكثيب
القريب من وسادتك ؟ هذه النظرات اليائسة العاجزة المسكينة ؟ . . . هذا
الموت الذي يحصد الأطفال ؟

ألا تغلق عليك باب زخانتك وتنام مرة أخرى ؟
لكن الليل أصبح طويلاً . . . وأوهام الليل عادت تعشش حول
السريـر . . . والسريـر أصبح واسعاً بارداً مخيفاً . . . والعـلاق لا يريد
أن ينام . . . والنجاح ليس له طعم . . . والشهرة ليس لها معنى . . .
والمال مجرد أوراق ميتة لا تدب فيها الحياة . . .

لمحت بين الخطابات والأوراق بطاقة صغيرة . . . مدت لها :
 والتقطتها . . . ووجدت أنها دعوة لى من إحدى الهيئات لحضور -
 عشاء . . . نهضت بسرعة وركبت عربتى وانطلقت إلى م
 الحفل . . .

دخلت إلى القاعة الفسيحة . . . ورأيت الأنوار تتلألأ براقه والمدء
 يرتدون ملابس مكوية منشاة . . . وجوهاً رسمية مشدودة .

وجابت نظراتى فى المكان الواسع وبين الناس الكثيرين كأنما تب
 عن شىء . . . ورأيت الرجال يجلسون النظر إلى النساء . . . وال
 يجلس النظر إلى الرجال . . . ومشيت بين المدعويين أهر ر
 لاهتزازات رؤوسهم كما تهز الدمية رأسها من فوق الزنبرك .

وفجأة ساد المهرج بين المدعويين ورأيهم يندفعون ويتدافعون ويد
 حول رجل قصير بدين . . . الكل يريد أن يمشى إلى جواره . . . ا
 يريد أن يظهر فى الصورة معه . . . الكل يريد أن يظهر على م
 التليفزيون بالقرب منه . . . الكل يريد أن يذكره بوجهه ود
 وجوده . . .

تركت الزحام ووقفت فى ركن هادىء . . . والتفت إلى جانبي فر
 رجلا واقفاً . . . رجلا عاديا . . . يلبس ملابس عادية . . . وي
 وقفة عادية . . . ليس قصيراً وليس طويلاً . . . ليس نحيلاً وا

بديئاً . . . ولكنى أحسست أن شيئاً غير عادى يحيط به . . . لعل ملامحه
كانت طبيعية مريحة بخلاف تلك الملامح المشدودة المنشأة . . . لعله
كان أنيقاً بالرغم من بساطته . . . لعله كان مرفعاً عن الالتفاف حول
ذلك الرجل . . . لعله . . . لعله . . .

والتفت ناحيتى . . . والتقطت عيناه عيني . . . وشعرت بهزة غامضة
في أعماقي . . . وابتسمت عيناه ابتسامة خفيفة غامضة . . .

وقال بصوت فيه الكثير من حركة عينيه :

— لأنهم يجرّون خلفه . . .

وسألته في بساطة : لماذا ؟

قال : إنه رئيس الهيئة .

وظال يتأمل الناس لحظات وفي عينيه نفس الابتسامة الخفيفة
الغامضة . . . أهى نظرة إشفاف أم سخرية ؟ أهى نظرة احترام أم
استخفاف ؟ لم أعرف . . .

والتفت ناحيتى مرة أخرى . . . ونظر في عيني مدققاً ثم قدم لي
نفسه في بساطة وطبيعية فقدمت له تقبلى على نحو ما فعل .

وقال وهو يشير إلى مائدة صغيرة منفردة : لنجلس إلى هذه . . . إنها
أبعد مائدة عن رئيس الهيئة . . .

وضحكك وضحكت . . . وصرنا معاً إلى المائدة وجلسنا متقابلين . . .
ونظر إلى أطباق الطعام ثم نظر إلى وقال باسمّاً : أنا لا أجيّد تقاليد
الحفلات . هل أساعدك ؟

ماذا فى عيني هذا الرجل ؟

وقلت له : لا . . . أشكرك . . . أنا لا أحب تقاليد الحفلات . . .

وبدأنا نأكل فى صمت . . . وقال بعد لحظات : هل تجددين وقتاً

لسماع الموسيقى ؟

فقلت : قليلاً . . . لم أسمع لحنك الأخير ولكنى قرأت عن نجاحه

واعجاب الناس به .

وتأملت نظراته بعيداً عني ثم نظر إلى وقال : لست راضياً عنه .

قلت : ولكن الجمهور راض .

قال : الفنان لا يستريح إلا اذا رضى هو .

قلت : لماذا تذيع لحناً لست راضياً عنه كل الرضا .

قال : هذا ما يعذبني . . . إن ما يرضيني أنا لا يفهمه الجمهور

قلت : ولماذا لا تؤلف الألحان التى ترضيك بصرف النظر عن

الجمهور .

قال : ومن يسمعها .

قلت : القليلون . . . واحد فقط . . . ولكن هذا أفضل من إرضاء

الجمهور بأى شكل .

قال : هذا ما أفعله أحياناً .

وأطرق إلى الأرض لحظة كأنما يفكر ثم رفع إلى عينيهِ العميقتين

وقال :

— تكلمنا عن الموسيقى كثيراً وأنت لم لا تتكلمين عن الطب ؟



قلت: إن الحديث عن الطب لا يناسب جو الحفلات . .
قال في دهشة لماذا؟

قلت: إنه حديث عن الألم والمرض . . . عن وجه الحياة الخزين .
قال: لا . . . إن آلامه عظيمة حقاً . ولكن سعادته أعظم . . . إنني
أتصور سعادتك حين تنقذين إنساناً من الموت . . . إنها أسعد لحظة في
حياة الطبيب . . .

قلت: وما هي أسعد لحظة في حياة الفنان . . . حياتك؟
قال: حين أخلق لحناً يرضيني . . . أو حين أسمع لحناً رائعاً . . .
ونظر إلى نظرة عميقة وقال باسمياً: أو حين أعثر على صديق
جديد . . .

حاولت أن أتفادى عينيه . . .
لكنه لم يدعني أهرب منهما . . . ورأيت نظراته تحوطني وتحاصرني
في قوة وثقة . . . فأحسست بقلبي يخفق خفقة واحدة هائلة .

* * *

تقلبت في فراشي مؤرقة . . . أصبح السرير خشناً مليئاً بالحصي
والمسامير . . .

ترك الفراش وأخذت أمشي في الحجرة . . . أحسست أن الحجرة
ضيقة كالزنزانة والجو خافق كجبل المشتقة . .
خرجت إلى الشرفة ووقفت لكنني لم أطق الوقوف . . . جلست . .
لكن لم أطق الجلوس . . . فوقفت ومشيت إلى حجرة الطعام . . . حاولت

أن آكل شيئاً . لكن مذاق الطعام كان متغيراً غريباً . كأنه مصنوع من المطاط . . .

أصبحت لا أحتمل أى شئ . . . لا الجلوس ولا الوقوف ولا المشي ولا النوم . . . أصبحت لا أجد طعماً لأى شئ . . . لا الطعام ولا الماء ولا الهواء . . .

والأشياء التى كانت تملأ وقى أصبحت نافهة فارغة . . . واهتماماتى التى كانت تبثع نهارى ابتلعها شعورى الحديد . . .

سؤال واحد يحوب آفاق عقلى وروحى . . .

هل أطلبه ؟ هل أكلمه ؟ هل أبدأ أنا الحديث ؟

ونظرت إلى الآلة الصغيرة . . . تلك الكتلة المربعة السوداء التى كنت أنقلها بيد واحدة من مكان إلى مكان . . . وأخرسها بأصبع واحد حين أريد . . . تلك الكتلة أصبحت الآن شيئاً رهيباً . . . جهازاً سحرياً خطيراً . . . أنظر إليها من بعيد فى حذر . . . وأقترب منها فى وجل . . . وألمسها بأصبعى فتمس عقلى وقلبي كهربية عنيفة كأنما مست يدي سلكاً كهريباً عارياً . . .

أنتغير الأشياء إلى هذا الحد حين تتغير نظرتنا إليها ؟

وجلست إلى جوار التليفون أفكر . . . وتذكرت كلماته حين كتب

لى رقمه . قال : اطلبينى حين تريدن . . .

إنه يحترم إرادتى . . . لماذا لا أحترم إرادتى إذن ؟

أقد كنت أحترم إرادتى دائماً . . . أليست إرادتى هى التى تحكمنى

وليست إرادة الغير ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يمتلك حياتي فلم أملكه شيئاً
لأنني لم أكن أريد ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يعطيني حياته فلم آخذ
شيئاً لأنني لم أكن أريد ؟ أليست إرادتي هي التي تحدد عطائي
وأخذتي ؟

وأنا أريد أن أراه الآن . . . نعم أريد . . .
ودارت أصابعي الثابتة في ثقب القرص مست دورات . . . وجاءني
رنين عال متواصل وفجأة انقطع الرنين فانقطع الدم من قلبي وممعت صوته
العميق يقول : ألو

لم أفكر في أساليب الدلال . . . لم ألبأ إلى ما تلجأ إليه النساء من
لف ودوران . . . لم أنظأه بأني أسأل عليه لجرد السؤال . . . لم أضع
البرقع على وجهي وأغمز له من وراء الباب . . . لم أصطنع السذاجة
والغباء . . .

قلت له في صراحة وصدق : أريد أن أراك .

— متى ؟

— الآن .

— أين ؟

— أي مكان . . . لا أهمية للمكان .

— أين أنت الآن ؟

— في بيتي .

— سأكون عندك بعد قليل .

تَهاوَيْت على المقعد كأنما انسحبت منى الحياة . . . وتلفت حول
أنظر إلى أثاث بيتي وجدرانها كأنما أنظر إليها لأول مرة .

ودب النشاط والحماس في كيائي فجأة . . .

هذه الصورة يجب أن أنقلها هنا . . . هذا الكرسي يجب أن أضعه
هناك . . . هذه الزهرة يجب أن تمتلئ بالورد . . . وأرسلت الخادم
ليشتري باقة من الورد . . . وليست القوطة ووقفت في المطبخ . . .
وصنعت كعكة بالبيض والابن وضعتها في الفرن . . . وصنعت قالباً من
الجلي وضعته في الثلاجة . . .

أخذت أجرى كالطفلة الصغيرة من القرن إلى الثلاجة . . . ومن
الثلاجة إلى زهرة الورد ومن زهرة الورد إلى صورة الحائط . . . ومن
صورة الحائط إلى القرن . . .

تصبب العرق من وجهي وسال إلى فمي ، لكنني وجدت له طعماً جديداً
لذيذاً . . . ارتفع صدرى وانخفض في أنفاسي لاهته متقطعة كجواد سباق
لكنني نسيت أن لي روتين . . . وضعت يدي داخل الفرن ولم أشعر بلسع
النار كأنما نسيت خلاياي نحي ألم الحرق . . .

التوى ظهري من الانحناء تحت الموائد والانتشاء فوق الرفوف كأنما
تلاشت عظام عمودي الفقري . . . ثم دق جرس الباب دقة واحدة رنت
في قلبي رنيناً غريباً رهيباً كأنني أسمع صوت الجرس لأول مرة في
حياتي . . .

جلس في حجرة الاستقبال وعيناه العميقتان الباسمتان أبداً تتجولان
بين صور الحائط . وملاعبه الجادة الرصينة تتلفت حوله في استطلاع
واهتمام... وأنا أجلس على غير بعد منه أحاول أن أخفي ذلك الشعور
العجيب الذي يهز أعماقي... وأحاول أن أكمّ الفرحة الغريبة التي تملأ
قلبي... وأحاول أن أتجاهل تلك الرغبة العنيفة التي أصابت
روحي...

ولكن هيات... عيناي تفضحاني بنظراتهما المتعثرة... وشفتاي
تخوناني برعشتهما المضطربة وصوتي يكشفني بنبرته الوجلة... ورأيت
يتسم في رقة ويقول:

— بيتك جميل... بيت فنانة...

قلت: أنا أحب الفن ولكن الطب يستولى على كل وقتي...

قال: إن الطب فن في حد ذاته...

ونظر إلى...

ماذا في عيني هذا الرجل؟ بحر عميق ليس له قرار...؟

وقلت له: أنت شرب فنجاناً من الشاي؟ فهز رأسه في إيماء خفيفة

وهو يتسم فكره وذهبت أعد الشاي... ونظر إلى الحادم في دهشة

وربية وهو يراني لأول مرة منذ دخل بيتي وأنا أقف في المطبخ أعمل

شيئاً...

وفتحت الفرن وأخرجت الكعكة وقطعت منها قطعة وضعتها في طبق

إلى جوار الشاي— وعدت إليه— ونظر إلى الكعكة الطرية وقد ظهر أنها

لم تنضح بعد . وابتسم ... لكنى لم أستطع أن أقاوم الضحك فضحكت وضحك معى ... وأخذنا نضحك طويلاً كأننا نريد أن نضحك إلى الأبد ... ومزقت الضحكات الطبيعية الطلقة ذلك الستار الرقيق من الحرج الذى كان يفصل بيننا ورأيتَه ينظر فى عيني نظرة عميقة رصينة وقال :
لم أر امرأة مثلك أبداً ..

قلت : لماذا ؟ قال : النساء دائماً يخفين مشاعرهن أو ملاحظتهن بستائر كثيفة مصنوعة .. أما أنت فلا تخفين شيئاً . حتى وجهك لم تضى عليه المساحيق ..

قلت : أنا أحب حقيقتى أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها .

قال : أنا أحب المرأة الصريحة الصادقة .

قلت : كثير من الرجال يعتقدون أن الصراحة تفسد أنوثة المرأة ...
لإنهم يحبون المرأة المتخفية المراوغة فيما رسون معها غريزة المطاردة والصيد ...
قال : إنهم لا يفهمون من المرأة شيئاً سوى أنها متعة حسية .
قلت : قليل من الرجال من يفهم أنوثة المرأة الذكية ذات الشخصية القوية .

قال : أعتقد أن المرأة مهما بلغ جمال جسمها فإنها تفتقد الأنوثة إذا كانت غبية أو ضعيفة الشخصية أو متصنعة أو كاذبة .

قلت : وماذا عن الرجولة ؟

قال : معظم النساء لا يعرفن عن الرجولة شيئاً سوى أنها كفاءة الرجل الجنسية .

قلت : الرجل في رأيي يفتقد الرجولة مهما بلغت كفاءته الجنسية إذا كان غيباً أو ضعيف الشخصية أو متصنعاً أو كاذباً .

ونظر إلى طويلا وقال : أين كنت كل هذه السنين ؟

— كنت مشغولة بالبحث .

— عن أى شيء ؟

— عن كل شيء .

— ألم تنال ما تريد ؟

— الذى أريده لم أنله أبداً .

— نحن لا نحصل على كل شيء في الحياة .

— عشت في حرمان دائم .

— الحرمان يجعل أوتار أعصابنا مشدودة نستطيع عليها العزف .

أما الإشباع فيجعلها ترتخي فلا تخرج لنا .

كان يكلمنى . . . وكان ينظر في عيني دائماً . . . لم أره مرة ينظر

إلى ساقى . . . لم أره مرة يجلس النظر إلى صدرى . . . وكنا وحدنا . . .

والأربعة جدران مغلقة علينا . . . لكنى لم أشعر أنه يرى الجدران أو يحس

بها . . . كان يملق في سماء عالية . . . وكنت أجلس إلى بجواره بلحمى

ودمى . . . لكنى لم أحس أنه يخاطب جسدى . . . كان يخاطب عقلى

وقلبى . . .

وأغمضت عيني في راحة واطمئنان . . .

١٠٣

جلست إلى جواره أنظر إلى أصابعه الطويلة الذكية وهي تمسك بريشة
الكمان في ثقة وبراعة، والأنغام تتراعى إلى أذني عالية هابطة. . . فرحة
حزينة . . . صاحبة هامة . . . صاحبة باكية . . . وقلبي معها دقة
بدقة . . . يعلو ويهبط . . . ويرقص ويهكي . . . ويتن ويضحك . . .
وتوفقت أصابعه عن العزف . . . وسألني . . .

— ما رأيك ؟

— رائع .

— وضعته الآن فقط .

— فيه بكاء وفيه فرح .

— هذه حياتنا .

— ما أجمل الفن . . . ليتني تعلمت الموسيقى لأخلق هذه الألحان .

— ليتني تعلمت الطب لأشفي كل الناس .

— الطب يشفي فقط ولكن الفن يشفي ويخلق .

— يمكنك أن تخاف في الطب جديداً . . . هناك أمراض ليس لها

علاج حتى الآن .

ونظرت إليه . . .

— أين كنت كل هذه السنين ؟

— كنت أبحث عنك .

— كانت لك تجارب ؟

— بالطبع .

— وأنت ؟

— بالطبع .

— بالتجربة وحدها نتعلم .

وسمعت صوته العميق يناديني . . . وسألني : ماذا في عينيك ؟

ووقف . . . فوقفت . . . وقفنا متواجهين تفصلنا خطوة واحدة . . .

وسمعت يقول بصوته الدافئ : أحبك . فشعرت بكل شيء في كياني يغوص

إلى أعماق بعد من نقسى ثم يرتفع فجأة إلى أعلى قمة منها . . . وابتسم . . .

وقطع الخطوة التي بيننا في لحظة وأخلقني بين ذراعيه . . . ووضعت رأسي

على صدره . . .

— لم هذه الدموع ؟

— أحبك .

وضمنني إليه . . . ضمنني حتى ضاع كياني في كيانه ، وتلاشي

وجوده في وجودي . . .

* * *

دق جرس التليفون . . . هبط لي رنينه العالي من السماء إلى الأرض . . .

فوقفت على قدمي وسرت إليه ورفعت المسامع : ألو .

وجاءني صوت ملهوف يقول : أنقذيه من الموت يا دكتورة . إنه

يموت . . .

أمسكت المسامع في يدي ونظرت إليه . . . وقال على الفور :

— مريض ؟

- نعم .
- سندهين ؟
- فوراً .
- هل آتى معك ؟
- إذا شئت .

ركبت إلى جواره في عربته وانطلق بسرعة مذهلة . . . ووصلنا بيت المريض . . . ولم يكن بيتاً ، وإنما كان حجرة ضيقة رطبة في بدروم مظلم أسفل إحدى العمارات الكبيرة . . . ورأيت شاباً نحيلاً يرقد على مرتبة قلقة على البلاط وإلى جواره بركة صغيرة من الدماء . . . وضعت السماعة على صدره وعرفت أنه مريض بالدرن الرئوى ، وأن حياته تتوقف على زجاجة دم . . . وتلفت حولي . . . ورأيته إلى جوارى وقال على الفور :

- هل تريدني شيئاً ؟
- زجاجة دم الآن من مركز الإسعاف .
- وحزى إلى الباب وهو يقول :
- سأذهب بالعربة وأحضرها حالا .

وجلس على صندوق خشبي إلى جوار المريض وحفته ببعض الدواء . . . وأعددت أدوات نقل الدم . . . وكشفت عن فصيلة دمه . . .

ثم رأيته يدخل مندفعاً وفي يده زجاجة دم . . . ونهضت مسرعة . . . وأمسك ذراع المريض . . . وظل إلى جوارى يساعلني حتى أدخلت الإبرة

فى الوريد وثبتها . . .

ونظرت إليه . . . ورأيت العرق يتصبب من وجهه . . . ورأيت رأسه قريباً من رأس المريض .

وهضت فى أذنه :

— ابتعد أرجوك . . .

— لماذا ؟

— قد تنتقل العدوى إليك .

— وأنت ؟

— هذا واجبى . . . على أن أقوم به تحت أسوأ الظروف . . .

ونظر إلى فى صمت . . . ولم يتحرك من مكانه حتى انتهت من تركيب جهاز نقل الدم . . .

جلسنا متجاورين على الصندوق الخشبي نرقب قطرات الدم وهى تساقط فى لهفة وسرعة من الزجاجاة إلى الخرطوم الطويل إلى وريد المريض . . . وكأنا دب الحياة فى تلك القطرات الحمراء القانية فشاركنا لهفتنا على إنقاذ المريض . . .

ونظرت إليه وابتسمت . . . فابتسم فى رقة وهو صامت . . .

وقلت : لو لم تكن معى لما استطعت أن أفعل كل هذا وحدى .

قال : بل كنت تستطيعين .

وأشار إلى زجاجة الدم وقال :

— لم يبق بها إلا القليل .

١٠٧

ونظرت إلى عيني المريض فرأيت نظراته أقل ذهولاً وأكثر تركيزاً . . .
وأنفاسه أقل سرعة وأكثر انتظاماً . . .

ونزعت الإبرة من الوريد . . . وفتح المريض شفثيه الياستين وقال
بصوت ضعيف وهو ينظر إلينا : أشكركم .
ودس يده في إعياء تحت الوسادة القلدة ومد لي ذراعه النحيل وقد
قبضت على جنبيه . . .

لا أدري ماذا حدث لي في تلك اللحظة . . . فقد دارت الدنيا بي
حتى كدت أفقد الوعي . . . ولم أشعر إلا بيد حانية تستلني . . . وقال لي
في حنان : هل تشعرين بتعب ؟

ونظرت إليه . . . ولم أدر ماذا أقول له . . . فلم أكن أشعر بتعب
ولكني كنت أشعر بنجمل شديد وعار . . .

هل استنكرت ذلك الموقف المزرى العجيب ؟ لا أدري . . . ولكني
شعرت في تلك اللحظة أنه ليس من الشرف ولا العذل ولا المنطق أن يلقى
الطبيب أجراً من المريض . . .

كيف كنت أمد يدي كل تلك السنين الماضية وأخذ من المرضى
مالاً . . . أى مال ؟ . . . كيف كنت أبيع في عيادتي الصحة للناس ؟
كيف ملأت خزينتي من عرق المرضى ودمائهم ؟
آه . . .

وأحسست بيده الحانية تستلني وتجلسني في العربة . . . وانطلق بي
إلى البيت . . .

وقال باسمًا بعد أن وضعني في السرير . . .

— هل أستدعي طبيباً ؟

وأحسست بدموع ساخنة على وجهي . . . وأمسك يدي في رقة

وقال :

— لم هذه الدموع ؟

— لم أكن أفهم شيئاً . .

— لماذا ؟

— كنت عمياء . . .

— لماذا ؟

— لم أكن أرى إلا نفسي .

— لماذا ؟

— كانت المعارك تحجب عني الحقيقة .

— أية معارك ؟

— معارك الناس جميعاً ابتداء من أمي .

— ألم تحققي شيئاً ؟

— لا . . .

لا . . . لم أحقق شيئاً . . . فليس الطب هو أن أشخص الداء

وأصف الدواء وأقبض الثمن . . . وليس النجاح هو أن تمتلئ عيادتي

بالتاس وخزيتني بالذهب ويلمع اسمي كالنجوم . . .

ليس الطب سلعة . . . وليس النجاح مالاً وشهرة . . .

الطب هو أن أمنح الصحة لكل من يحتاج الصحة بلا قيود

ولا شروط . . . والنجاح هو أن أمتح من عندى للآخرين . . .
 ثلاثون عاماً مضت من عمرى دون أن أعرف الحقيقة . . . دون أن
 أفهم الحياة . . . دون أن أحقق ذاتى . . . وكيف كنت أحققها وأنا لا أفكر
 إلا فى أن آخذ وآخذ وتحقيق الذات لا يكون إلا بأن أعطى وأعطى . . .
 ولكن كيف كان يمكنى أن أعطى شيئاً ليس له عندى وجود ؟

ونظر إلىّ فى حنان وقال :

- حاول أن تنامى .
- لا أستطيع .
- إنه سيشفى بعد زجاجة الدم .
- لن يشفى أبداً .
- إنك لم تأخذى منه الجنيه .
- آه . . . لا تذكرنى . . .

ولكن هل يمكن أن أنسى ؟ . . .

تلك الحجرة الضيقة فى البدروم ، تلك المرتبة القنطرة على البلاط ؟
 تلك البركة الصغيرة من الدماء ؟ ذلك الوجه الشاب النحيل ؟ تلكما العينان
 الغائرتان اليابستان ؟ وتلك النراع النحيلة الطويلة مملودة فى وجهى قابضة
 على مدينة حادة تشطر عقلى وقلبي شطرين . . .

آه . . .

وأخفيت رأسى فى صدره . . . أحتفى فيه . . . وألتصق به . . .
 أحسست أنى تجردت من عمرى الذى فات وعلت طفلة تحب وتعلم المشى . . .

أصبحت في حاجة إلى يد حانية تستدني . . . لأول مرة في حياتي
أشعر بالحاجة لأحد ، حتى أي لم أكن أشعر بالحاجة إليها . . .
ودفنت رأسي في صدره وبكيت . . . بكيت في راحة وهدوء .

١٩٨٥ / ١٨٣٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١١٣٣-٤	الترقيم الدولي

١ / ٨٣ / ١٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.م.)

٢ / ٨٨٦١ ٣

قمر شمس شفیه
٢

